كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

رسول الله
وخاتم النبيين

الأستاذ عبد العزيز شداد الأهل

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

obeikandl.com

obeikandl.com

رسول الله وخاتم النبيين

الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

كتب إسلامية

العدد السادس والثلاثون

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة

obeikan.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّ فِى هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

(سورة الأنبياء)

« يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا » .

(سورة الأحزاب)

obeikandl.com

obeikandl.com

تحـــية وتســـليم

في هذه اللمحة التي تضيء في جبين الزمن باهلال ربيع الأول تتمثل وحدة المسلمين التي لاتنفصم مهما تفرقوا أمس واليوم ، ومهما انتشروا تحت الكواكب غدا . فما المسلمون جميعا الا اهل قبلة واحدة وكتاب واحد ونبي واحد ، ولا فرق بينهـم الا في الأوضاح والأزمنة والأوطان .

وما تلف حول محورها دقيقة فتتغير ملامح الظـل فيها ـ على اختلاف خطوط الطول والعرض ـ الا وفي جوائها نداء متجدد صارخ واضح المبنى والمعنى والمنطوق والمفهوم ، من كل سمع ، وفي كل قلب ، يدوي بالحقيقة الأزلية التي لا تفنى ، تقرن اسم المرسل برسوله ، والخالق بسيد كائناته ، هاتفة في أروع لحن تقول :

أشهد ألا اله الا الله وان محمدا رسول الله .

وما ضاق ميلاد محمد فكان ساعة ميلاده ! بل هو متجـدد المولد في كل ساعة ، مشرق الجبين في كل لمحة ، حي دائم الحياة ولو غفل الناس حينا ثم تنبهوا ، لأن حياته انبثت في كل حيـاة في القطرة السـاكبة والنبتـة الصـاعدة ، وفي الصرخة ، والهمسة والكلمة والهمة ، حتى لم يعد شيء الا وفيه نبضة من محمد تنبض باسمه مع اسم الله الذي أرسله في النهاية ، وعنـد

النهاية تكون الغاية . بعثه للامم المتجمعة ، والقبائل الشـــاردة . والأزمنة الراقدة والمتوثبة ، فلم تفت رسالته على زمان ، ولم تتخل عن انسان .

وكان ميلاد محمد ميلاد البنت الموءودة ، والحرية المفقودة ، فى كل بقاع الارض لابقعة واحدة ، وعند كل الامم لأمة وحدها ، تأخذ بيدهم الأمة الوسطى : فى كل مسلك علم ومرقى نهضة ، وتستمر دأبا حتى لو انطفأ المصباح فى شعب وأضاء فى شعب ، لأن أمر السماء بالقراءة لم يأت الا فى رسالته ، فأصبح على جميع الناس فرضا . ونور العلم لم يشتعل الا من دعوته ، فصار لجميع الناس غرضا . ومن ثم صحت دعواه حين بعث بأنه آخر الرســل وخاتم النبيين .

وولدت مع مبعثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفصاحة القاصدة والبيان الأمثل ، فكان القرآن له حظا موفقا وجدا مرزوقا : ارتفع بموسيقى الكلام على موسيقى الأنغام ، وازدهى به اللسان والقلم على قدر كل من قال وقدر كل من رسم .

ثم حملت الفصحى الرسالة المتوهجة تنشر على الناس ماعجزت عن نشره على الملأ لغات القدماء ، وقد بقيت لغة القرآن شريعة وعلما وتاريخا وأملا ، وستبقى أبدا يعود اليها كل من أراد فتنـــة رائعة من كلام ، وينتهى عندها كل من أتى قومه بنظام .

وحين جاء محمد جاء على غير طراز ابن آدم الذى لم يأت من قبل الا ناقصا ، ولن يأتى بعد الا كذلك : جاء كامل صفات الانسان ولم يتعال ـ وهو المثل الكامل ـ فلم يزل يقـــرر انه بشر ، ليرفع مكان البشرية عن الكبر والكذب ومكان الألوهيـة عن التشـــبيه والتمثيل . ثم قرر ـ وقرر وقرر الله معه ـ أنه بشر لينفرد بالأزلية الواحد الأول الذى لم يولد ، ثم قرر ـ وقرر الله معه ـ انه سيموت ثم مات لينفرد بالبقاء الواحد الآخر الذى لا يفنى .

كما تقرر فى دينه الحق الأول للخليقة : سواسية الناس ٠ وفرد فيه طبيعة ابن آدم لايعبد حتى محمد ، ومن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت

ثم التفت محمد عن نفسه ليعنى بالناس ، وأضنى تاريخه ليسعد التاريخ ، ومازال يحمل هم البشر حتى بعد موته ، فقد أبى ان يضع عن نفسه العبء ، او يطرح عن كاهله المرحمة ، فضمن للمؤمنين به حتى فى القيامة ان يظل لهم معينا وبهم رحيما ، فحين يقول كل نبى : يارب نفسى ، يقول محمد وحده : يارب امتى !

وولد محمد فى مكة ، فى أم القرى ، ذات القفر واليباب ليعزبه تواضعها ويغنى فقرها ، فى خشوعها تأنس العقيدة ، وحول تجردها تسكن العبادة ، فى بناء من الفطرة البادئة من طين مروب وحجر مرضوم ، لم يعل بالتمرد ، ولم يتزين بالذهب ولم يرفل فى الزخرف ، آبيا عليه ربه ان يولد فى بناء أرهقته يد انسان أو وقف على السخرة فيه ملك كخوفو او نبى كسليمان ، وانما هو بناء ابراهيم واسماعيل ، من طين عز طهرا على المنازل ، وابى كبرا على المعاول ، وعجز عنه الذى دمر تدمر وأبلى بابل ٠

ومثل فطرة البيت ولد محمد وبعث ، خاشيا خاشعا ،راكعا ساجدا ، ولم يخلفه مع سمو شأنه وعلو دينه الا خليفة جائع خميص أو ملك مخرق القميص ، ومن يطأطىء رأسه ـ مع سواد الأمة ـ راكعا ، ويخر على التراب ـ مع سواد الأمة ـ ساجدا ، من حيث تذل له التيجان والمفارق ، وتدين له المغارب والمشارق ٠

وولد مع الوليد السمح دين سمح ، رفع من شأن الاديان التى سبقت فاندرست أو بقيت ، وآمن بالرسل الذين ذكروا أو لم يذكروا ، ليرسل الناس وراء الحقيقة الخفية حتى تعلن ، ويثيروا الكريم المجهول حتى يعرف ، فى شريعة مرسومة النظام بينة التعليم ، لااضطراب فيها ولاتناقض ٠ ومن ثم صحت ألاتكون

من صنعته لأنها أكبر منه مهما كان كبيرا ، ولم يسمها باسمه أو ينسبها الى نفسه ، ولكنها سميت « الاسلام » الذى أرسل الله به كل الأنبياء .

وهى الشريعة الاخيرة والدين الجامع الذى هجر الهجر والافك، وحرم الدماء على السفك ورفض خرافة الجنس ، وبدعة الانفراد بموطن ، ونظم العبادة فى فروض والأخلاق فى نظام وآداب الاجتماع فى سلك ، وأشعل العقل وراء المعرفة ، ويرى القلم واللسان للمشاعر واطلق الحرية الا أن تطغى والعلم الا أن يدمر وحب الحياة الا أن تغر وتفتن .

لهذا ـ وأكثر منه ـ ولد محمد وله بعث ، وسيظل مولودا مبعوثا حتى القيامة ، مقرونا اسمه باسم مرسله ، فى كل أذان يعلو وهمس يخفى ونبضة تدق وصمت يسكن ، مع الحقيقة المنبثة فى كل خلية من حياة ، والتى ينادى بها المؤذن عند كل صلاة صائحا واضحا مبلغا يقول :

أشهد ألا اله الا الله

وأشهد أن محمدا رسول الله

* * *

مولد الضياء

أراد أبرهة ملك صنعاء من قبل النجاشى ملك الحبشة أن يبنى فى صنعاء معبدا لم يبن مثله لملك قبل النجاشى ، ثم أخذ فى فى بنائه فاستذل أهل اليمن جميعا وجشمهم ألوانا من السخرة والارهاق ، وحمل على اكتافهم المهدودة كل ماوجده من رخام مجزع او حجارة منقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام •

وطغى أبرهة وأسرف فى طغيانه ففرض على كل عامل فى بناء معبده أن ينهض الى عمله على فراسخ بعيدة قبل ان تطلع شمس كل نهار ، فاذا طلعت ولم يكن عامل من العمال قد أخذ فى عمله عوقب بقطع يده ثم لم يعف من العمل مهما كان أقطع مبتورا

ثم طغى ابرهة وأسرف حين رأى المعبد قد ارتفع وعلا حتى كاد يكون كالقلنسوة فوق الرءوس فكتب الى سيده النجاشى — الذى طالما أذل أبرهة واهانه — كتب اليه يقول :

انى قد بنيت لك أيها الملك معبدا لم يبن مثله لملك كان قبلك ولست بمنته حتى اصرف اليها حج العرب !

وشاع أمر هذا الكتاب بين العرب فغضبوا ، لأنه اذا كان أبرهة قد قوض قصر بلقيس فان القصر لم يكن مكان عبادة فله ان يفعل أما أن يعتدى على اقدس مكان ويظن انه يصرف العرب عن بيت

الله الذى بناه ابراهيم واسماعيل فقد بلغ ابرهة بذلك غاية السفه والطيش ، وانسل اعرابى غضبان الى حدود اليمن والى صنعاء ، ودخل معبد أبرهة واعتلاه ثم رأى ان يدنسه فدنسه وخرج الى البادية مسرعا ، وقد رمقته بعض العيون ، وقد فعل الاعرابى مافعل لأنه رأى أن لو تم لابرهة رأيه وأمره لكان من أعجب أمور الدنيا ان يعلو معبد المعبادة يبنيه رجل مرهق ذليل !

وبلغ أبرهة مافعل الأعرابى فاستشرى غضبه وحلف ليسيرن الى البيت الحرام فى مكة حتى يهدمه ، ثم جمع جنده واستعان الحبشة فتهيأت وتجهزت واعانته بجند وعدة ، ثم سار وخرج مع جيشه بفيل ضخم شديد .

وسمعت العرب بذلك فاعظموا الامر وفزعوا له ورأوا جهاده حقا عليهم فنفروا من سائر العرب لقتاله ، ولكن أبرهة مضى فى غيه وخاض بالجيش مصاعب الصحراء حتى اذا كان على موضع بطريق الطائف قريبا من مكة ارسل الى سيد مكة يومئذ يؤمنه وينذره : يؤمنه بانه لم يجىء ليحارب اهل مكة أو يذل قريشا ، وينذره بانه انما جاء لهدم البيت ولن يرده أحد عن هدمه .

وطال الأخذ والرد ، ثم رأى عبد المطلب بن هاشم سيد مكة ـ حين رأى قوة لاقبل لقريش ولا للعرب بها ، ان يلجأ الى البيت ويستغيث بربه ، فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده .

وما كادت الدعوات تتصاعد ـ وابرهة حين ذلك يزحف على مكة ليأسه من تسليم اهلها له ـ حتى كان جيش ابرهة يذوب من حوله كما يذوب الرصاص ويسقط القتلى كالعصف المأكول ، ومن قدر له أن يفر من فلول الجيش وابتدر طريقه ضل عنه فاستغاثوا بأشتات من الأعراب ليدلوهم على طريق اليمن من اى طريق . وهكذا فى أقل من لمح البصر باد جيش أبرهة وجيش الحبشة ومات الفيل

وهلك أبرهة ، ثم خفت وطأة الاحباش على اليمن بل على بـــلاد العرب كلها ٠

وكما بادت الأجساد الطاغية التى ارادت العدوان بادتالأفكار الباغية التى أرادت تحويل العبادة عن بيت الله الحرام ، واـــم ينفع ابرهة الحميرى غضبه ولا أمله ولا تذلله للنجاشى ولا معبده ، وان كان قد حشد للمعبد كل ما كان فى قصر بلقيس من ذهـــب ورخـــام ٠

ثم هب العرب مستيقظين ٠ ومهما يكونوا قد ضلوا حينئذ فأحاطوا الكعبة المقدسة بالأوثان والنصب والأصنام فان مقامهـــا صار اكرم وتقديسها صار اعظم اذام يروا من حق أحد ولاقدرته من قبل أبرهة أو بعده ، ان يحول العرب عن قبلة أبيهم ابراهيم وابنه اسماعيل الا أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات ٠

حدث هذا ذات عام سمى عام الفيل خارج مكة وحول البيت وفى مضطرب الناس ولكن حدثا آخر اعظم منه بل اعظم من كل حدث كان يوشك ان يكون فى شعب عبد المطلب نفسه سيد مكة الذى صدر ابرهة ، او يوشك أن يكون فى داره عند الصفا ..

فقد رأت آمنة بنت وهب ـ وكانت قد تقدمت فى حملها ـ انه خرج منها نور اضاء قصور « بصرى » من أرض الشـــام ٠ وكأنما جاء الحلم امتدادا لما حدث فى موقعة الفيل اذ اضاءت مكة أرض الجنوب فجاء الحلم أملا فى ان تضىء مكة ايضا أرض الشمال ٠

ولعل آمنة بنت وهب لم تكن رأت قصـــور بصرى ولكنهـــا سمعت بها من أفواه التجار من أهلها ، أو لعلها سمعت بها من زوجها عبد الله ذاته قبل ان يموت ٠ وكانت بصرى مركزا ذابال ومكان فى أرض حوران ، يتقايض فيه تجار العرب والروم مابينهما من تجارات ، ولكن الذى سمعته آمنة عن قصور بصرى تمثـــل لها فى مرأى الحلم الجميل كأنه نور مبين ٠

وأحست آمنة وهى تتقدم فى حملها ان امرأة قط لم تحمل أخف مما حملت . ومع أنها لم تكن قد بلغت السادسة عشرة وكان أول حمل لها بل حملها الوحيد فانه لم تحمل امراة أيسر منه فيما سمعت من مشقة النساء .

فلما ولدته لم تشعر بآلام الولادة ولا كروبها ، ونبهتها الشفاء ام عبد الرحمن بن عوف قابلتها لتنظر اليه وهو ينفصل عنها على يدى قابلتها ، واذا هو يقع بيديه على الارض ويشخص ببصره الى السماء .

وما رأت آمنة ذلك حتى اسرعت فأرسلت « ثويبة » جارية ابى لهب الى جده عبد المطلب تبشره بوليدها وتقص عليه هيئته حين الولادة ـ ومن قبل قصت عليه ما رأت من حمله من اليسر ـ وتقص عليه مارأته الشفاء وتقول :

انه قد ولد لك غلام فأته فانظر اليه .

وفرح عبد المطلب وطرب فأعتق الجارية التى بشرته لانها جارية ابنه ، او اعتقها أبو لهب لهذه البشرى قبل أن يبعث محمد ويعاند أبو لهب ، ثم أسرع عبد المطلب الى آمنة يهنئها ويرعى وليدها ، ثم عق عنه فى اسبوعه بشاة ، ثم سماه مع أمه آمنة ، وكأنما قد الهما باسم جديد على العرب ، سمياه محمدا .

وارتضع محمد ثدى امه ثم اقبل عليها النساء من أهلها وصواحبها يرضعنه معها حتى كن ثمانى او اكثر . وكانت « ثويبة » الحرة احداهن أو ثانى امرأة أرضعته بعد أمه ، فقد قدر لها ان تكون اول رمز لاعتاق ارقيق فى مولد محمد ، وان يرتفع شأنها بارضاعه الى مقام الحرائر الكريمات .

وكان أبو الوليد العظيم قد مات . وكل أب وابن يموت . وما بحياة الاب يحيا الوليد ، ولا بالظن يهتدى الضال ولابالجهد يستغنى

الفقير ، ولكن برعاية الله وحفظه ومنه ؛ وهكذا قال الله له حين كبر وارسل : ٠٠ **ألم يجدك يتيما فآوى : ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فاغنى ٠٠**

وكان امر الله قدرا مقدورا ، فما كان لطغيان ان ينتصر ونبى الرحمة يولد **أو يوشك ، وما كان لظلام أن يخيم ونور الحق يكاد** يظهر ثم يعلو ، وماكان لمستعين بحجر ونقوش وسخرة واذلال ان يغلب الخير والعقل والانســـــان ، وماكان لفيل من جانب اليمـــن او الحبشة او غيرهما معهما ان يقتحم دارا مقدسة توشك ان تهل منها رسالة **يدعى اليها الناس عامة** ، **فى كل زمان ومكان** ٠ وكان هذا علما غائبا عن الناس ــ حين ذاك ــ ولكنه كان مقدرا شاهدا قائما ، ثم كان ٠

وماذا **كان يدعو عبد المطلب** ياترى ويقول عندما أخذ بحلقه باب الكعبة ودعا ، حين امر الناس ان يخرجوا من مكة ويتحرزوا برءوس الجبال والوديان لئلا تصيبهم معرة هزيمة !؟

وهل **كان يظن عبد المطلب أن** تقتصر اجابة الدعوة من رب البيت الحرام على رد ابرهة بالطير الابابيل ثم تظل الكعبة متجـر أوثان وسوق أصنام ومتاهة ضلال دون أن يرسل اليها يدا تنصر الحق وتحطم الباطل ؟

وهل كان يظن المعبد المدنس الذى بناه ابرهة ليطفىء به نور الكعبة او يظن اهله معه ان مكة سترسل الى اليمن غدا دعاة للسلام يدعونها للاسلام وهى تسرع فى قبول الدعوة والانتظام فى الدين فلا يبقى منها أحد الا اقبل عليه واستمسك به ٠

لقد كان كل ذلك علما غائبا عن الناس ــ حين ذاك ــ **ولكنه** كان مقدرا شاهدا قائما ثم كان بمشرق الشمس ومطلع الضياء ٠

* * *

شواهد النبوة

وخرج نسوة بنى سعد بن بكر من هوازن الى مكة يلتمسن الرضعاء ، وكانت البادية فى قحط وجدب والناس يرجون الغيث والفرج ، فلما أتين مكة وعرض عليهن اليتيم ابن عبد الله أبين لأنه يتيم .

وما ادرى ! اكن يطلبن الغنى ؟ واذن فليس اجود فى مكة ولا فى قريش كلها من عبد المطلب بن هاشم . ولقد كان عبد المطلب يذبح ذبائحه ويطعمها للناس فاذا بقى من اللحم شىء ـ وطالما بقى منه كثير ـ نثره على جبل أبى قبيس وعلى شعاف الجبال حتى تأكل منه الطير فسمى عبد المطلب لهذا الجود بمطعم الطير .

أم كان نسوة بنى سعد المرضعات يشعرن بما فى كلمة اليتيم من رجاء الحفاظ عليه ، وهذا يتيم وحيد فلا بد أن يشقين أنفسهن ويزدن فى الحفاظ عليه ؟ لعله هذا ، لأن قبول المرضعة عند العرب لرضيعها كان عهدا عليها مضمون الوفاء .

وما أظن مرضعة نظرت فى وجه محمد ثم كفت عنه . وقد عرف كيف أقبلت صواحبات آمنة لارضاعه ، لأنه كان يدعو الأبصار والقلوب ويجذبها اليه . ولكن الله حرم عليه المراضع لترضعه حليمة بنت أبى ذؤيب وكانت حليمة أجف المرضعات ثديا وأعجفهن شاة ، ولكنها رضيت به ورضى أهله ، وذلك لتجرى الارهاصة

الكبرى من لمس شفتى وليد يتيم قد رفعه اليتم فلا مثيل له ولا شبيه ، وحتى تمطر البادية وتشرب ويخضر عشبها وينمو ويمتلىء أهلها ريا وشبعا .

وباتت حليمة بخير ليلة ، وأصبحت أرضها الراعيـة المخضرة محسودة من الرعاء ، تروح أغنامهم اليها ، وكأنما كف المطر الا عنها وانقطع النماء الا بها ، وكان كل امرىء يقول لراعيه :

اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !

وكما ارتد أبرهة عن مـــكة وبقى البيت ، ارتد القحط عن البادية واستغنى بنو سعد بن بكر واستغنت هوازن كلها ، بل كتب لها أن تنال من رحمة هذا اليتيم ما يبقيها فى قابل الأيام ، ولم تدر أنه سيدعوها الى دينـــه الذى سيجىء به وأنه ســـيعفو عنها :

فحين أرسل محمد حاربته قبائل هوازن كلها ، فلم تبق أمامه مقدار حلب شاة ، ثم أخذ فى قسمة الغنائم ، واذا فى السبى بنت لحليمة السعدية وهى أخت له من الرضاع فأطلقها رسول الله ، فلما رجعت الى قومها وأخبرتهم بما وقع لها أتى جماعة منهم وقالوا : يا رسول الله ، أنت خير الناس وأبرهم فأردد علينا أموالنا واهلينا، فقال لهم : ان خير القول أصدقه . اختاروا اما أموالكم واما ذراريكم ونساءكم . قالوا : ما نعدل بالأحساب شيئا ! فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وأما ما كان لغيرهم فسأطلب فيه معروفهم . ثم قال لهم : اذا أنا صليت فتقدموا الى وأخبرونى بذلك ففعلوا كما أمروا ، فقال صلى الله عليه وسلم : من طابت نفسه بشىء أن يرده فليفعل ، فقالوا : رضينا بذلك ، وسلموه كل الأموال وكل الأسارى .

وشب الرضيع أسرع مما يشب الغلمـــان وأحسن ، ولم يتم رضاعه ويبلغ السنتين حتى كان غلاما ممتلئا يملأ العين اعجـــابا

والقلب اهتماما ، فعادت به حليمة الى أمه تؤويه كما تحب ، لأن حليمة تخوفت عليه الأحداث ·

ودار الزمن سريعا طاحنا فماتت آمنة أمه وحضنته فى بيت عبد المطلب أم ايمن بركة الحبشية التى أعتقها ليلة تزوج بخديجة ، ثم مات جده عبد المطلب فانتقلت رعايته وهو فى الثامنة من عمره الى عمه أبى طالب شقيق أبيه عبد الله ·

وكانت حضانة أم أيمن بركة الحبشية لرسول الله بعد موت أمه بركة ويمنا لها امتد الى أحفادها من بعدها :

فقد خاصم مولى لأسامة بن زيد الحسن بن اسامة حفيد أم بركة ونازعه ، وكان هذا المولى يدعى ابن أبى الفرات · وأفرط ابن أبى الفرات فى الاساءة فقال للحسن : يا بن بركة ، يريد أم أيمن ! فقال الحسن : اشهدوا ·

ثم رفع الأمر الى قاضى المدينة أو واليها لعمر بن عبد العزيز ، فقال القاضى لابن أبى الفرات : ما اردت الى قولك يا بن بركة ؟

قال : سميتها باسمها ·

قال القاضى : انما أردت بها التصغير ، وحالها من الاسلام حالها ورسول الله يقول لها أمة ويا أم أيمن ! لا أقالنى الله ان أقلتك ! فضربه سبعين سوطا ·

وتمثلت صورة محمد وهو يشب وينمو فى جمال ناطق قوى يملأ عين ابى طالب كلما نظر وقلبه كلما التفت ، وتناديه فى يقظته ونومه وحله وترحاله ، فهفا شيخ مكة الى ابن أخيه ولف عليه وحاطه ، ووجد فى حياطته أهنأ من الشبع للجائع الخمصان وأروح من عذب الماء للهائم العطشان .

وكان فى جمال محمد حدة فى اضاءته طلاقة كأنه الزهرة المتفتحة فى رونق الضحى · وعيون الناس منهومة بحسنه تترصده وتتبعه

ولا تغض عنه ، وتتخطى مهابته الحسد فى العيون والقلوب الى محبة تطيف به فى فرحة وولوع .

وطالما تملاه عمه ورمقه وشمه فلم يشبع منه ؛ وما زال فى حاجة لأن يمتلأه ويرمقه ويديم النظر اليه ، ولن يشبع منه حتى آخر الأبد لو امتد بالناس الأبد فلم يكن لهم أو للأبد آخر .

وذات يوم وفد على مكة رجل عائف من قبيلة يقال لها « لهب » ليقرأ حظوظ الناس ويتفرس وجوههم ليخبرهم بما تؤول اليه أحوالهم ، فأتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر اليهم ويعتاف لهم فيهم .

ونظر أبوطالب فيمن يأخذه من أولاده ليعتاف له ، فلم يجد أحب الى قلبه من محمد فصرف قلبه اليه وأخذه الى العائف ليخبره بما يصير اليه حاله ، وهل هو حقا نبى كما أخبره أبوه عبد المطلب ؟

وما لبث الفزع أن أخذ أبا طالب حين راى ذلك العائف يديم النظر الى وجه محمد حتى كاد ينتهبه ، وجعل الرجل يبعد عنه الغلمان ويحرص على أن يقرأ حظ محمد من وجهه ، فلما رأى ذلك أبو طالب أخذ محمدا ومضى به يجرى بعيدا عن عينى هذا الوحش العائف ، فجعل الرجل يصرخ ويقول : ويلكم ! ردوا على الغلام الذى رأيت آنفا ، فوالله ليكونن له شأن !

وأحب محمد عمه وتمنى ألا يفارقه قط لما رأى من حبه ورعايته له ، وحان لأبى طالب أن يسافر بتجارته الى الشام فى رحلة الصيف وكاد يهم بالمسير ، فتشبث محمد بزمام ناقته وهو لم يعد العاشرة ليذهب معه الى الشام وقال له : ياعم ، الى من تكلنى ؟ فقال له أبو طالب : والله لا اكلك الى غيرى ! ثم مد يده فجذبه ، وأردفه خلفه ، وأقسم ليخرجن به وليرعينه ولا يفارقه أبدا .

وخرج أبو طالب بابن أخيه فى ركب تجارته الى الشام ، فلما نزل بصرى ـ صاحبة حلم آمنة ـ ذات القصور والتجارة فى أرض

حوران ، نزلوا ذلك العام براهب نسطورى يقال له « بحيرا » كانوا يمرون به فى ذلك المكان ولا ينزلون عليـــه ولا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ·

وقدر لهم أن ينزلوا قريبا من صومعته ، وأطل بحيرا من خلال نوافذها فرأى غلاما مضيئا قد أظلته غمامة ، ثم رآه يلجأ الى ظل شجرة منفردا ، والشجرة تنحصر أغصانها وتميل حتى تغمره بظل ظليل ·

وبحيرا راهب نصرانى خاشع القلب متواضع ، وتمثلت له قصة موسى وهو يأوى الى الظل فى فىء شجرة ويقول : « **رب انى لمـا انزلت الى من خير فقير** » ، فدهش بحيرا لما رأى أو لم يدهش ، ولكنه لم ير بعينيه أقل من معجزة تتضافر على صنعتها فى البادية سحابة فى السماء وشجرة فى الارض ليستظل بهما غلام .

وكل قلب مؤمن يرى بنوره ما رأته عين بحيرا ولا ينكره ، لأن سير السحب وتحصر الأغصان وكل أمر قريب أو غريب انما يفعله من يملكه · وماذا يمنع أن يرسل الله سحابة ويميل أغصان شجرة لتظلل حينا نبيا سيجتبيه ؟ أما المنكرون – وقد يبست قلوبهم – فهم يظنون ألا تسير السحب أو تنحصر الأغصان الا كما يظنون وان كانوا لا يملكون !

وصنع بحيرا طعاما ، ولعله اتخذه من قرابينه لأنه رأى ارهاصا كارهاصات الأنبياء يحدث قريبا من الصومعة ، ثم أرسل اليهـم يدعوهم الى الطعام ويطلب اليهم ألا يتخلف أحد ولا سيما أمير الركب الصغير الذى نزل عند الشجرة ، فدعوه فأقبل فاحتضنه بحيرا وأجلسه بين القوم ·

ثم حدث بين بحيرا وأبى طالب حديث فى شأن الغلام وما رأى بحيرا من علامات النبوة فيه ، ثم نصح بحيرا لأبى طالب أن يعود بابن أخيه الى مكة ويحذر عليه من يهود مخافة أن يصيبوه بأذى ·

وأسرع ابو طالب ففرغ من تجارته ببصرى ذاتها ورجع بمحمد الى مكة وقد زاده بحيرا في ابن أخيه ثقة وايمانا ٠

لقد كان أهل الكتاب يعرفون أنه قد أظل زمان نبى ٠ فهل كان بحيرا يقصر نظره على ما كان عند أهل الكتاب حين ذاك ؟ او أنه كان يرى بظهر الغيب ما يحدث من يهود المدينة ويهود الزمن كله ضد الاسلام ؟

وأقحط أهل البادية وأهل مكة من احتباس المطر عنهم ، فقال قائل : اعمدوا اللات والعزى ٠ وقال قائل : اعمدوا مناة الثالثة الاخرى ٠ فقال شيخ منهم وسيم حسن الوجه والرأى: أنى تؤفكون وفيكم بقية ابراهيم وسلالة اسماعيل ؟!

قالوا : كأنك عنيت أبا طالب !

فقال : ايها ٠

فقاموا بأجمعهم فدقوا الباب عليه فثاروا اليه فقالوا : يا أبا طالب ، اقحط الوادى واجدب العيال فهلم فاستسق !

فخرج أبو طالب هو وشيوخ قومه ، وأخرج محمدا معه ـ وكان لم يزل غلاما ـ حتى اذا كانوا فى الكعبة عن لأبى طالب أن يستقى بمحمد ويدعو به فناداه ، فأقبل وكأنه شمس دجن تجلت عنها سحابة قتماء ، فأخذه ابو طالب فألصق ظهره بالكعبة ، ووقف محمد وخشع والتزم سمته ولاذ باصبعه كالضارع المستغيث ، وما فى السماء قطعة صغيرة من سحاب ، ولم يكد ، حتى أقبل السحاب من ها هنا وها هنا ، وجلجل الرعد واستهل المطر وفاض واغدق وابتل الوادى وأخصبت الأرض واستغنى الناس ٠

* * *

بنـــاء الكعبـــة

مضى على زواج محمد بخديجة عشر سنين حدثت فى أثنائها أحداث للكعبة لم تكن حدثت لها من قبل ، فقد أصابها سيل أسقط بعض أحجارها وهدم بعض جدرانها ، ثم أقبلت امرأة من قريش تجمر الكعبة بالبخور فأوقدت نارا ذات شرر فطـــار الشرر واندلعت النار فأحرقت بابها ، فلم تجد قريش بدا من اصلاح الأحجار ، واقامة الجدران واعداد باب جديد .

وحان البناء فأقبل عليه من كان من حقه أن يقبل ، وتخلف عنه من كان عليه أن يتخلف ، لأن أبا طالب وهو شيخ قريش وسيدها وسادن الكعبة وحارسها قد فرض على من يتقدم للاشتراك فى بنائها شروطا شدادا نزلت عليها القبائل جميعا :

واشترط أبو طالب ألا يدخل فى بنائها لبنة ولا طينة الا من كسب طيب ، ولا ينفق عليها من كسب امرأة بغى ولا من ربح جاء من ربا أو مال كانت فيه مظلمة لأحد من الناس . ثم اشترط ألا يرش على طينها ماء الا فى اناء مطهـر ولا يحملـــه الا كل كريم شريف .

وأقبلت قريش تجمع الحجارة ، وكل قبيلة تجمع على حدة ، واقبل بنو عبد المطلب جميعا ومعهم محمـــد بن عبد الله ينقلون الحجارة من أماكنها حتى أيدى البناة . حتى اذا بلغ البنيان الركن ـ وهو الحجر الأسود ، وكان فى ركن الكعبة على ارتفاع قامـة

الرحمن ـ اختصموا فيه لأنه حجر فريد فى أحجار الكعبـــة وله عندهم مقامه وتقديسه ؛ وهمت كل قبيلة أن تنفرد برفعـه الى موضعه دون الأخرى ، وكاد ينشب بينهم القتال ·

فلما اشتدت بهم الخصومة وكاد القتال ينشب تقدم أبو أمية بن المغيرة وكان عامئذ أسن قريش كلها فقال : يا معشر قريش · اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، فأمسكوا وانتظروا ·

وما من شك فى أن شبانهم الأقوياء ورجالهم العقلاء قد أضمروا فى أنفسهم ألا ينزلوا على حكم أبى أمية ، فقد يكون أول قادم الى المسجد من لا يرتضيه أحد أو لا يصلح حكما بين الناس ، وفى أمر من أقدس الأمور ·

ولكنهم ما لبثوا أن رأوا أول قادم رجلا يرضونه وينزلون عند رأيه وقد جرب فى كل ما جرب فيه فكان أمينا حكيما فأحبه الرجال والنساء والشبان ، ولم يكن غير محمد بن عبد الله !

فلما انتهى اليهم محمد وأخبروه لم يتلبث ولم يتردد فى أن يصدر حكمه ثم أصدره من فوره فقال : هلم الى ثوبا · فقدموا له الثوب ، فأخذ الحجر فوضعه عليه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ، فلما بلغوا به موضعه أخذه بيده ووضعه فى مكانه وبنى عليه ·

فى ركب بصرى فى رحلة الصيف صار الغلام المرافق لعمه أمير ركبه بعد أن دلهم على شأنه بحيرا النسطورى ، وحتى لو لم يدلهم على شواهد نبوته لذكرهم بمثلهم العربى الذى يقول : الصغير أمير الركب ·

ثم ما لبث محمد أن اكتمل شبابه وأضاءت طلعته واتزنت خطاه فصار سيد القبائل فى مكة حين ألقوا اليه بقياد أقدس قضية عندهم ليحكم فيها ، اذ هى الحجر الأسود والقتال ·

وهذا الحكم وان كان قد أصبح محفوظا فى الأذهان كاحدى بدائه التاريخ فان من ورائه أمرا عجيبا . لعل باحثا فى سيرة النبى لم يثره من قبل ، فلماذا حكم محمد بهذا الحكم الذى قضى به ؟ ومن أين جاءه الحكم والقضاء ؟ سؤالان لابد منهما لمن يعرف الارهاص لماذا يكون ، ولمن يعرف النتائج كيف تتم أسبابها . فلا شك أنه حكم قد جمع المتفرقين ولم شمل المختلفين ، ثم كان فى مكة وحول البيت ، وهى بداية عجيبة فى تاريخ رسول السلام يقضى بها وتخضع القبائل لها . ومن كان يدرى أنه ارهاص لجمع القبائل كلها بل بنى آدم جميعا فى الغد القريب على دعوة جديدة تنشد الوحـــدة والسلام ؟

أما من أين جاء بهذا الحكم فلا بد أن يكون الهاما من الله دفعه فى قلبه لتزداد به مكانته وتقوى عارضته وحجته . وقد حفظت له هذه النصرة فى الأذهان ونقشت على القلوب فما يكاد الحجر الأسود أو ركن الكعبة يذكر حتى يتذكر الناس ما قضى به محمد من الوحدة وجمع القلوب .

وليس بعيدا أن يكون هذا الحجر قد اكتسب التقديس مرات عديدة : مرة من أنه بقية من بناء ابراهيم واسماعيل ، ومرة من أنه كانه رمزا لاجتماع قريش والعرب حين اختلفوا ورضاهم بعد أن غضبوا ، ومرة ثالثة لأن النبى الكريم وضعه بيده فى مكانه الذى هو فيه والذى كان قديما له فيدرك الناس أعلام الكعبة ويعرفوا مبدأ الطواف ومنتهاه .

وما كادت القبائل تعلى جدران الكعبة وتحكم عليها بابها حتى تجزءوها فى مجالسهم كما كانوا من قبل : فاتخذ بنو عبد الدار وبنو أسد ركن الحطيم أو شق الحجر فى حائط الكعبة الشمالى لما هم عليه من الأصل والشرف ، وليوجهوا وجوههم الى ربتهم العزى ذات الجمال والاشراف ومن بيدها المقدرة وبوجهها سورة العز والدلال .

وهذا كله باطل ، فلا جمال ولا اشراق ولا مقدرة ولا عز ، وانما هى حجر مهين مطموس الخلقة مظلم كئيب .

وجاء بنو مخزوم وبنو تيم ومعهم قبائل أخرى من هذيل فاتخذوا مجالسهم الى جنوبى الكعبة ما بين ركنها الأسود واليمانى ليوجهوا وجوههم الى مناة ذات القضاء والقدر وواهبة الحظوظ والأعمار .

وهذا كله باطل ، فلا قضاء لديها ولا قدر ، ولا حظوظ ولا أعمار ، بل هى حجر ذليل لا حس فيه ولا حياة .

واتخذ بنو جمح وبنو سهم مجالسهم فى ظهر الكعبة ، فقد كانوا أهون من كل أولئك شأنا وأقل قدرا ، وليكون مجلسهم الى جوار اساف ونائلة اللذين تسفك تحت أقدامهما دماء الذبائح الموهوبة والمنذورة ، وشاركهم فى عبادتهما خزاعة وفلول من قريش واشتات من الاعراب الذين كانوا يحجون الى البيت العتيق .

وهذا كله باطل ، فلا قربى ولا قرابين ، ولا غرام بين اساف ونائلة ولا مسخ ، ولا احساس بذبائح ولا نذور ، وانما هو وهم كاذب وخيال كسيف .

وصار جوف الكعبة كرسيا لرب الأرباب واله الآلهة ذى الحمرة العقيقية واليد الذهبية «هبل» حارس البئر الغنية التى تمتلىء بتحف العرب وهداياهم للكعبة المشرفة . وتحت قدمى هذا الاله الأعظم جلس صاحب الأقدح السبعة ليديرها فتفصل بين ظنون الناس ويقينهم فى أولادهم وأنسابهم ، فمن ساوره شك فى ابنه أو فى أبيه ساق الى صاحب الأقدح بعيرا ومائة درهم ، فأدار له الأقدح ليخرج له وجه الحق بوحى من هبل المطلع على الأصلاب والأرحام ، فيعود الرجل بعد شكه فى ولده أو أبيه على ثقة ويقين .

وهبل مع كل هؤلاء الآلهة صغير باطل ، فلا هو يحرس ولا يدرى ولا هو يوقن ولا يظن ، وانما هو حجر أصم وطريحة بكماء .

أما بنو عبد مناف وبنو زهرة فقد جعلوا مجالسهم فى شق الباب وانضووا جميعا تحت لواء ابى طالب . ولم يكن لهم شأن بالالهة والأصنام ، غير أفراد منهم ، وانما هم سدنة الكعبة وحراسها ، وعليهم سقاية الحجيج ورفده بالأموال التى كانت تخرجها قريش فيما بينها تشترى بها طعاما للحجيج ، فلهم ولقومهم الباب وللناس الجدران والظهور .

هؤلاء هم الناس جميعا فى مكة وفى خارجها قد اجتمعوا على ضلال وشرك . ما عدا بنى عبد مناف وبنى زهرة وأفراد من العقلاء الا أشتاتا منهم ضنوا مع القوم وأغرقوا فى عبادة الأوثان .

أما محمد فمنذ بنيت الكعبة ووضع الركن وهو دائم الجد والهم والتفكير متواصل الصمت والتأمل والنظر ، ثم ما لبث محمد أن صرف وجهه عن التجارة ليقوم بأمرها غلمانه وغلمان خديجة . ثم ما لبث أن دأب فى الصعود الى حراء والهبوط منها .

ثم تسرب الى اسماع الناس أن محمدا يدعو بدعوة خفية ، وما لبث الأمر أن تكشف بأنه يدعو الى دين جديد تخلع فيه الكعبة رداءها وتطرح عنها أوثانها وأصنامها ، وتغير الناس نفوسها وعقولها ، وانه لأمر صعب وشىء عجاب .

وانه لم يكن بناء الكعبة ليعد لهذا السفه الذى صارت اليه قريش وصار اليه العرب من ورائها ، ولم يكن السلام الذى أرخى على القبائل باجتماعها فى وضع الحجر الأسود ليصير الى هذا الشرك والتمزق الذى ليس له شبيه فى الأرض !

وما كان محمد وهو ينقل الحجر الأسود بأيدى القبائل ثم يضعه هو فى مكانه بيده الا وهو يجد بين جنبيه ثقة واطمئنانا الى أن كلمة الحق متى ألقيت الى هذه الأسماع فانها سوف تنفذ الى القلوب . ولم يكن هذا تدبيرا قد اتخذ له محمد أركانه وأوائله ليمضى فيه ، ولكنه كان خبيئا مكنونا فى ضمير الغيب ، وما يلبث ان يكون .

ولقد رأى هذا المستقبل بذاته رجل نجدى كان هناك عند البيت والرسول يشد الحجر الأسود ، وقد أراد هذا النجدى أن يناول النبى حجرا يشد به الركن فنحاه العباس بن عبد المطلب وناول النبى الحجر ، فغضب النجدى حين نحى وقال : يا عجبا لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال عمدوا الى اصغرهم سنا واقلهم مالا فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له ، أما والله ليفوتنهم سبقا وليقسمن بينهم حظوظا وجدودا !

* * *

مبعث الهدى

ومست يد السماء بالرحمة أكباد الأرض فنزل الوحى بالحقيقة الازلية على المجتبى بها . واحتضنه جبريل وضمه وأمر الامى الذى لم يعرف القراءة أن يقرأ ما يلقى اليه من قول ثقيل وأن يقوم له الليل الطويل .

ومن عجب أن يؤمن الفتى الامى بأن يعلم ويعلم ، والفرداليتيم بأن يوحد القلوب والآراء ، ولكنه رسم له طريق النجاح وأخذ بيده وسار معه فيه فأمره ان يكون برا رحيما بدعوة أهله وينذر الأقربين من عشيرته كى يفرض على الناس أن ذوى القربى والرحم أولى الناس بالبر والهداية مهما كان فيهم من عصاة ومنكرين .

وابلغ محمد دعوة السماء سرا ثم جهر ، واحست قريش ـ ظلما ـ ان محمدا سيقطع اوصالها ويكبت أطرافها فأعلنت حربه وجهاده ، ثم اشتط بعض اهله فى الغواية مع الناس او قبل الناس، ثم نجا بعد مدة من نجا فاسلم ، أما الذين لم تكتب لهم الهداية فتبوا وخسروا ، ولم تغن عنهم الاموال ولا الأولاد وصب محمد فى اذانهم انذار النار ولهيب السعير .

ولم يبدأ محمد بذوى رحمه وقرباه الا رحمة لهم وانقاذا لأنفسهم من السفه والضلالة ، بل دعاهم ليحملوا معه أعباء الرسالة فيحطموا معه صور الاصنام المرئية بالعيون ثم يبيدوا

صور الآلهة المزعومة المزدولة التى استولت على الاهواء والقلوب . وكان هذا البر تعليما من السماء اذ قال الله له : وانذر عشيرتك الاقربين .

وتوالى البيان منزلا على محمد يهدى وينذر ويعلم ملقيا فى قلوب الذين كفروا الرعب ، ولو اتيح لاحد منهم أن يتسلل الى الكعبة وحده فى ظلمة الليل لتسلل وحطم صنمه الذى يعبده وعبث بكل صنم يعثر به لينجو من الخوف الذى أحاط به ، ولكن الحسد طفى عليهم والعناد استبد بهم ، ولو رشدوا واهتدوا لعلموا أنما نزل على محمد انما هو شيء لا يحسد ولا يعاند ، بل هو هدى السماء واجتباء الله ، وما من قوة فى الارض تستطيع أن تضل من يهديه أو تغلب من يجتبيه .

وما كان لقريش صاحبة اللسان والحاكمة فى سوق البيان ان تنفض من حول محمد أو تضع أصابعها فى أذانها فان محمدا لم يكن فظ اللفظ واللقاء أو غليظ القلب والدعوة ، وانما كان رضيا سمحا وواضحا بينا ، فلم يكن لهم أن يجتمعوا على ضوضاء عكاظ وينفضوا من حول القرآن ، ولكن القدر جرى ليحيا من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة .

جاء محمد يدعو الى اله واحد تجتمع لعبادته قريش ويجتمع العرب ويجتمع العالم كله ظاهره وخفيه ،وهل فوق دعوةالوحدانية والوحدة من دعوة للخير ؟ ولكن الاهواء تفرق القلوب وتمزق النفوس ، ويخيل للعقول ذات الضلال وهى تنصر الاهواء انهاتدلى بالحجج وتقدم البراهين ، ولو رجعوا الى أول مبادىء الحق الصادق ونظروا الى اقل بصيص من النور الساطع لقبلوا الدعوة وما جادلوها ونصروا الحق والنور وما حاربوهما .

وجاء محمد يدعو الى البذل والجود من غير سرف ولا تبذير ، وخير لهم ولانفسهم أن يبذلواويجودوالان المال الذىاقترفهالاغنياء انماكان من جهود الفقراء ومواريث الضعفاء والايتام ، وشرمايصيب ابن آدم ان يأكل الحق وينكر الجهد ، ولكن حب المال اعمى قلوب

جامعيه وأنكروا أن يطوقهم الله ما بخلوا به يوم القيامة حين يكون لله وحده ميراث السموات والارض . بل ربما عجل الله لهم العذاب فى الدنيا اذا جاء يوم فصل فردت فيه الحقوق وعرفت فيه الجهود .

وجاء محمد بان الله يأخذ الصدقات ويقبل القرض الحسن ويكتب الاقوال والاعمال . وهى لغة يفهمها الفصحاء ويخضع لها البلغاء . وكم ركبت لغتهم متونا من المجاز وجاوزت جبالا من الجمود والخمود . ولكنهم منعوا الصدقات ولم يكفوا عن الربا لانهم عبيد أجساد وأصنام ، وأهملوا المقالة الكريمة لأنهم لم يروا الله ، وكيف يرونه وهم لم يروه الا حجرا اصم وجسدا لايتكلم : واغرب الامر ان يعاونهم على الكفر او يسبقهم اليه اهل الكتاب .

ووعد محمد من يؤمن به بالجنة ـ على لسانه ولسان القرآن ـ واسال لهم انهارها من ماء غير آسن وهم العطاش ابدا فى الصحراء ومن لبن لم يتغير طعمه وهم فى ارض تجف فيها الزروع والضروع ، ومن عسل مصفى ونحل الوديان والجبال تخلط فى فمها حلوا بمر وعذبا بملح ، ومن خمر تلذ الشارب ولا تغوله وتحييه ولا تقتله .

وفى الكلام من وراء الفاظه اشارات قارعة الى ماء الدنيا كله وهو آسن لبنها كله وهو متغير وعسلها وهو متكدر وخمرها وهو يغول ، فلا تمام فيها لخير ولا كمال له ، ولعلهم فهموا ولكنهم عاندوا وفضلوا العطش على الرى وجفاف الضرع على الدر والخليط على الصافى والغول والقتل على الصحة والحياة ، ومن لم يفهم هذه الاشارة القارعة من أهل البيان كان خليقا بأن يكون أنفه مجدوعا .

كما أن فى هذه الاشارة ما يوضح عظمة القرآن واحاطته بالعلم، فانه دار حول كل ما يتصوره الانسان من مصادر الصفاء وأتى به ؛ فهو اما أن يكون من الطبيعة كالماء أو من النبات ورحيقه كالعسل أو من الحيوان كاللبن او مصنوعا كالخمر . وكل ذلك لا يضاهى ما يكون فى الجنة من أمثاله وأشباهه . وهذا خاطر فى هذه الآية لم يسبق اليه احد من قبل .

وان فى هذا الوعد الحق لجمعا لما هو سبب فى الحياة كالماء وماهو سبب فى النمو كاللبن وماهو للذة كالخمر والتفكهة كالعسل فاذا أضيفت اليها كل الثمرات والمغفرة تحت نعم الله والاؤه فى جنة الخلد ودار القرار .

وأوعد محمد من لا يؤمن بالنار فلم يصدق المشركون أنهم يبعثون بعد أن يكونوا رميما ! وقال الوليد بن المغيرة : أرأيتم يامعشر قريش ما قاله لى محمد ؟ لقد جئته بعظام قد بليت فقلت له : يامحمد ، انت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم . ثم جعلت أفته بيدى وأنفخه فى الريح نحوه ، فقال لى : « نعم اقول ذلك ، يبعثه الله واياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك الله النار ! »

ووقف أهل الكتاب من وراء المشركين موقف آبائهم من الكفر والجمود اذ طلبوا أن تنزل السماء قربانا تأكله النار فلما جاءتهم رسلهم بما طلبوا قتلوهم ولم يكونوا صادقين . أما الابناء فقد طلبوا من محمد أن تنزل معه الملائكة أو تتفتح له الكنوز ، أو تنقض الصواعق ، وما كان للرحمة المنزلة أن تدعو بعذاب ، ولا للعدالة المرسلة أن ترد الامور الى غير طبيعتها ، ومن لها اذا استجيب لها ان يؤمن الجاحد ويعقل السفيه !

ولم يكن بد أن يترك محمد مكة ويهاجر هو والذين آمنوا معه الى المدينة لتتم الدعوة هناك وتقوم الدولة ، وليعلم كل ذوى رحم انهم ان لم يتعاطفوا ويتراحموا فالله أعطف وأرحم وأبر وأكرم ، وليعلم كل ذوى باطل فى الارض أن فى الارض ذاتها جوانب تنصر الحق وتؤيده ، وانه لينتصر بالغريب اذا جفاه القريب .

ولو لم تناد المدينة محمدا لناداه بلد آخر وقوم آخرون ، ولكن قدر للمدينة أن تستقبل النبوة وتنصر الدعوة وتقيم القبلة ، وقدر لها أن تستحق ثناء الله عليها حيث يقول « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وتستحق ثناء الرسول حيث يقول : ولولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار ، والله لو سلكت الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار .

ونادى محمد للايمان بآيات القرآن التى نزلت عليه وبجوامع الكلم التى هدى اليها ، وان الطريق مفتوح للتوبة حتى للذين تمادوا فى الغى وابعدوا فى الضلال . وحث القلوب على الضراعة والأعضاء على الانابة واللسان على الدعاء .

واشتعلت المدينة جدا وعملا واستيقظت روحا وبدنا ونشطت بها الزراعة والتجارة ونفقت الاعمال ، وامتلأ المسجد بالمصلين ووجد الفقراء من أهل الصفة صدقاتهم . ونصبت فى المسجد الخيام بين آن وآخر لاستقبال الوفود وتمت المعجزة باجتماع الاوس والخزرج تحت راية الاسلام .

ولكن نبوءة بحيرا الراهب كانت لمحمد بالمرصاد . لقد كانت تلوح له من وراء الغيب سطور لم يستطع ان يقراها فى وضوح ، ولكنه كان على صواب أو كان ما يقرؤه فى كتبهم عن صفة محمد حقا .

ولعل يهود تمنت ان يهاجر اليهم رسول الله بالمدينة بعد أن علا امره وذاع صيته ليسرعوا الى اتباعه ليصير اليهم ملك المدينة او ملك الجزيرة كلها حين تظل الحرب الضروس تأكل الاوس والخزرج المتحاربين حتى تبيدهما جميعا .

ولكن القدر أبى أن يملأ فم الطامع الجشع ويجيع المخلص الأبى فما كادت الأوس والخزرج تبايع النبى عند العقبة الأولى فى موسم الحج حتى ارتاب ما بينهما من صدع وذاب ما كان بينهما من خصام .

ثم اذن الله أن تتمادى فى غيها يهود حتى تطهر منها المدينة وتطردها الحصون العربية من أرض الجزيرة ثم من الجزيرة العربية كلها ويحقق عمر بن الخطاب فى عهده الا يجتمع فى الجزيرة دينان تصديقا لقول رسول الله فى خطبة الوداع : ان الشيطان قد يئس ان يعبد فى ارضكم هذه بعد اليوم ، ولكن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم فقد رضى به ، الاهل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد .

وقد انعقد اجماع الناس على أن محمدا كان آخر الرسل وخاتم النبيين ، كما قرر القرآن من قبل ، فختم الله به جميع شرائع السماء فلا رسول بعده يأتى بشريعة ، ولا نبى يرسل اليه بشرع يتعبد به فى نفسه ، فأغلق الباب بعد موته فلا يفتح لأحد الى يوم القيامة .

ولقد أدركت هذا المعنى أم أيمن بركة الحبشية يوم مات رسول الله فبكت ، فقيل لها : ما يبكيك يا أم أيمن ؟ فقالت : أبكى على خبر السماء .

* * *

خصب البادية

وخرج رسول الله من الغار فى آخر ليلة الاثنين أو فى صبح الثلاثاء حين ارتفع الضحى وكادت الشمس تعتدل ، مع أبى بكر ومولاه عامر بن فهيرة . ثم لحق بهم الدليل الأمين عبدالله بن أريقط وقد كان ابن أريقط فتى مشركا ولكنه وقد عقد مع أبى بكر عقدا على اجر راحلتين مع الكتمان فانه أبى الا أن يكون عربيا شريفا فمضى معهم يدلهم على الطريق .

وسلك ابن أريقط برسول الله وصاحبيه طريقا متعرجا على الساحل حتى اتى مكانا اسمه « قديد » وفيه تتفرق الطرق وتتشعب ، فتنكب الدليل كل طريق يسلكه الناس وسلك الوعر .

ثم حميت الظهيرة فارادوا ان يفيئوا الى ظل وتطلعوا فوقعت عيونهم على خيمتين قد قامتا فى الطريق . وكانت الخيمتان لامراة برزة جليلة جهيرة الحسن عاقلة اسمها عاتكة بنت خالد من خزاعة وكانت تكنى بأم معبد . كانت تقعد بفناء احدى الخيمتين محتبية تنظر الى الطريق ، فاذا رأت به سائرا خافت عليه الوعر فدعته لتسقيه وتطعمه وتعينه على المسير .

وما لاحت الخيمتان لاعينهم حتى مالوا اليهما لعلهم يجدون لبنا او طعاما ، واسرع عبد الله بن اريقط فسأل المراة عن تمر او لحم يشترون منه فلم يصب عندها مما سأل شيئا .

واذا هى امراة مرملة قد نفد زادها ، وكانت السنة مجدبة مجهدة لقى فيها اهل البادية المشقة ، وكان زوجها وابن عمها تميم

ابن عبد العزى والذى يكنى ابا معبد قد ترك خيامه واسترسل بعيدا فى البادية لعله يجد لغنمه عشبا وماء .

ونظرت أم معبد فى القوم فقالت : والله لو كان عندنا شىء ما اعوزكم القرى ولا بعتكم منه . ثم هالها وهى تديم النظر انها رأت بينهم رجلا أزهر مارأت مثله من قبل قد نظر الى شاة فى ناحيه من الخيمة ثم قال لها :

ما هذه الشاة ياأم معبد ؟
قالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم .
قال : هل بها من لبن ؟
قالت : هى أجهد من ذلك ؟
قال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟
قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى ان رأيت بها حلبا !

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة العجفاء فمسح ضرعها وذكر اسم الله . وقال : اللهم بارك لها فى شاتها .

وما كاد يفعل حتى استجابت الشاة وتهيأت للحلب وتدفق اللبن ، فدعا رسول الله ـ وهى لا تعلم من أمره شيئا ـ باناء كبير يسقى الرهط فحلب فيه حتى ملأه وغلبته الرغوة ، ثم مد يده باللبن بادىء ذى بدء لام معبد صاحبة الشاة فسقاها فشربت ولم يدعها حتى رويت ، ثم سقى أصحابه حتى رووا ثم شرب رسول الله آخرهم وقال : ساقى القوم آخرهم شربا . ثم حلب رسول الله ثانيا عودا على بدء وغادر اللبن عند أم معبد ، وارتحل هو وصاحباه والخيمة مهتزة الاطناب مما حدث بها من أمر عجيب .

وشيعت أم معبد هؤلاء القوم ببصرها وهى لاتود ان يغيبوا عنها ، حتى اذا غابوا فى الافق عادت تعجب لريها بعد العطش الشديد ، وتتحسس اللبن الباقى لتسقى منه ابا معبد اذا عاد ، وتتخوف ان يكون قد خيل لها ، فقد حيرتها الدهشة وملكها العجب مما راته اليوم .

ولو القت أم معبد بسمعها من قبل الى البادية والى الذين يمرون بها ، وعلمت بشياه حليمة بنت أبى ذؤيب فى بنى سعد بن بكر لما دهشت لانه هو هو الازهر المبارك الذى تحيا به القرى وتخصب به البيداء .

ثم ما لبث ابو معبد أن أقبل يسوق اعنزا هزيلة عجافا . واصطبرت أم معبد حتى يقع زوجها على المعجزة ، فلما وقعت عيناه على اناء اللبن ووجد الرغوة ماتزال تطغى أخذه العجب وتلفت فى أرجاء الخيمة ثم قال :

من أين لك هذا والشاة بعيدة فى المرعى ولا حلوبة فى البيت ؟

قالت : انه مر بنا رجل مبارك الطلعة كان من حديثه كيت وكيت ..

قال : عجبا ! أهو صاحب قريش الذى يطلبونه منذ أيام ؟ والله انى لاراه هو !

قالت أم معبد : لعله !

قال أبو معبد ـ وهو يتلهف لمعرفته ـ : صفيه لى يا أم معبد .

لقد كان شخص محمد يعلق بالقلب لاول نظرة فيحيط به ويطيف ، الم تحمله حليمة للرضاع حين جذب قلبها لاول مرة راته ؟ او لم يضطرب العائف من قبيلة لهب حين رآه لاول مرة فميزه من بين كل الغلمان ، او لم يره بحيرا الراهب فيشهد ان له شأنا !

وسواء اطالت نظرة رائيه اليه أو قصرت فانه يجمع فى قلبه منه ما يكفى لان يصفه وسواء فى ذلك العيي والبليغ ، وقد سئلت الربيع بنت معوذ بائعة العطر فى المدينة أن تصف رسول الله فأوجزت فى وصفه وأبلغت فقالت لسائلها : رأيت الشمس طالعة !

وكما وصفه الغرباء عنه وصفه الاقرباء منه ولم تتفاوت الاقوال فيه فتشابهت أقوال على بن أبى طالب وانس بن مالك وأبى هريرة وعائشة وابن أبى هالة وأبى جحيفة وجابر بن سمرة

وابن عباس وابن معيقيب وأبى الطفيل وخريم بن فاتك وحكيم ابن حزام وغيرهم رضوان الله عليهم اجمعين .

وكذلك رأته ام معبد فاجتمع فى قلبها وصفه لاول مرة فى أقصر مدة ، فلما قال لها زوجها : صفيه يا أم معبد ، قالت :

رأيت رجلا كان أنظر الثلاثة واحسنهم قدرا ، رايته ظاهر الوضاءة متبلج الوجه حسن الخلق قد امتلأ بدنه امتلاء نعمة وطمانينة ، متوسط حجم الراس شديد سواد الشعر ، قد طال عنقه فى ملاحة وفى لحيته كثابة ، وسيما قسيما اكحل العينين فيهما دعج وسواد وهما حوراوان ، وفى اهداب عينيه طول .

ورأيته طويل الصمت فى وقار ، فاذا تكلم سما رأسه وعلاه البهاء وتكلم نزرا قليلا ، وفى صوته بحة كأنه يتكلم من قلبه ، وكأنما منطقه خرزات عقد يتحدرن، حلو المنطق، كلامه فصل لا نزر ولا هذر . وهو أجهر الناس ، أجذبهم للعيون من بعيد واحسنهم عندها من قريب . قد حف به رفقاؤه ، اذا قال استمعوا لقوله واذا أمر تبادروا الى امره ، وقد احتشدوا لخدمته وهو مشرق الوجه غير عابس ، وكأنما لم تدركه شدة ولا اصابه هرم .

قال أبو معبد : والله انه لصاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته هنا لالتمست ان اصحبه ، ولافعلن ان وجدت الى ذلك سبيلا !

أما الشاة التى لمس رسول الله ضرعها فبقيت عند أم معبد ـ التى أسلمت ووفدت على النبى بالمدينة ـ بقيت عندها حتى كان زمان الرمادة زمان عمر بن الخطاب وهى سنة ثمانى عشرة من الهجرة . قالت ام معبد : وكنا نحلبها صبوحا وغبوقا وما فى الارض قليل ولا كثير .

وحين ابتعد النبى عن خيام أم معبد لحق به فارس من « قديد » ذاتها يقال له سراقة بن مالك بن جعشم وكان يكنى أبا سفيان ، جاءته رسل من كفار قريش وجعلوا فى رسول الله وابى بكر دية

كبيرة ، ثم جاءه رجل وهو جالس فى مجالس قومه بنى مدلج فقال له : : انى رايت آنفا اسودة بالساحل اراها محمدا وأصحابه

وتردد سراقة قليلا ثم خرج بفرس له محبوسة عليه وحده لا يركبها سواه . ثم ركبها ونهب بها الارض نحو المكان الذى نبىء عنه ، واذا رسول الله وصاحبه .ورسول الله يقرأ بصوت يسمع ولا يلتفت . اما ابو بكر فيكثر الالتفات . وما كاد سراقة يصل حتى ساخت يدا فرسه فى الارض حتى بلغتا الركبتين ، ثم نهض للابتعاد واسرع فى اثرهما يناديهما بالامان فوقفوا . ثم جاءهم واخبرهم اخبار ما يريد الناس بهم وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذوامنه شيئا غير ان سألاه أن يخفى عنهما . فسأل سراقة رسول الله أن يكتب له كتاب امان فأمر رسول الله عامر بن فهيرة فكتب له فى رقعة من اديم ثم اراد ان يمضى بها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« قف ها هنا فعم علينا بتهور النجوم » يريد رسول الله الا يدل عليهم حتى تسقط النجوم من اماكنها وحتى لا يهتدى اليه من يعرف طريق السير بها .

ولقى سراقة رسول الله يوم فتح مكة بكتاب الامان فأمنه وأسلم سراقة ، وعرف رسول الله الخير فى سراقة واقباله على الايمان حينما تحقق له النصر الذى جعله الله لنبيه فأراد رسول الله أن يزيد سراقة ثقة فى الاسلام وانه سينتصر فيما بعد حتى تكون حلى الملوك فى أيدى الاعراب فقال له ذات مرة : كيف بك اذا لبست سوارى كسرى ؟

ولعل سراقة ظل ينتظرهما من غنائم الحروب زمانا طويلا ولكنه لم يكذب ولم يمل . فلما أتى عمر بن الخطاب بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة ــ وكان رجلا كثير شعر الساعدين ــ فقال له عمر : ارفع يديك وقل الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الاعرابى !

شريعة الحرب

لم يقدر للعرب أن يقبلوا على الاسلام بغير حرب يتعلمون خوضها فنا وتجربة ؛ وفى ظنى أنه لو قدر لهم أن يدخلوا الاسلام عند أول دعوة دعوا بها لما عاشوا الا قليلا ولصاروا أمة بلهاء

وتكاد الآيات والأحاديث التى نظمت فنون الحرب الاسلامية وآدابها تبلغ عددا كبيرا فاذا اضيفت اليها القصص والتجارب والأخبار فانها تجمع أعظم دستور لفن القتال لايفوت قديما ولا حديثا .

ومنذ دخلت المدينة فى حروب مع العرب انشأ رسول الله بها نظام الفروسية وجعل القرآن والحديث يحثان الناس على اعداد الخيل واجادة الرمى واحتمال الصبر ، ودخلت المدينة هذه الحرب وهى تتمنطق بالأخلاق التى قيدت بها والآداب التى طلبت فيها .

وانتصر المسلمون فى بدر ، ثم مسهم القرح فى أحد ، ثم أنقذهم الله فى غزوة الأحزاب ، ثم دخل النبى مكة صلحا بلا قتال فهل الحرب غير ذلك كله : نصر وهزيمة وخسارة وكسب أو ظفر بغير أن توجف عليه خيل ولا ركاب ؟

وماذا كان يمحص النفوس فيظهر الذين آمنوا وينمحق الذين كفروا الا أن يبتلى الناس بالحرب فيثبتوا أو تزلزل أقدامهم ويعظموا أو تغتر نفوسهم ، ويروا الله فى الضيق فيلجئوا اليه أو يفزعهم الخوف فيولون الأدبار ، ويمهد الله لهم النصر او يجعله عليهم عصيا عسيرا ؟

فى بدر دخل المدينة فى كل بيت فرحة ودهم كل بيت فى مكة كربة . وفى أحد بكى كل بيت فى المدينة حتى كفكف الناس دموعهم حين نبههم رسول الله الى أن عمه حمزة قد قتل أيضا ، ولعله لم يقتل فى أحد من هو خير منه ، وفى الأحزاب ضاق بالمسلمين الكرب وبلغت القلوب الحناجر وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا ، ثم انصبت على فجأة رحمة السماء فولى الأحزاب منهزمين وصار المطبقون على المدينة أعداء وفلولا ، أما من كانوا من داخل وهم يهود فقد استؤصلوا ، وأما قريش فقد عصفت بها ريح سموم وخلاف ، وكانت ريح الخلاف صرا أشد عصفا وأشد تدميرا .

ثم كان فتح مكة بعد صلح الحديبية وعمرة القضاء بلا حرب وبفتحها هدأت النفوس الثائرة وخمدت العداوات الجامحة وأقبل على الاسلام من آمن به مخلصا أو دخله لعلوه وظهوره خائفا ، وتحطم معرض الأصنام بالرماح والأيدى والأرجل ، وأذن الله أن ينتهى زمن مذلة الانسان الى أخر الزمان .

وقال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله ، ان ابا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال : نعم . ثم اذن مؤذن رسول الله وهو يدخل مكة وجيوشه تطبق عليها من كل ناحية : من داخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

وكان من الميسور أن تدرك العقول أن الامن يصيب من دخل داره ليعلم أنه ممن يكف أذاه ، ويصيب من دخل المسجد ليعلم أنه ألقى سلاحه ، أما لماذا كان أيضا بيت أبى سفيان فانه كان ليبلغ الحلم مداه وتشمل الرحمة حتى أقصى أعداء النبى عداوة مادام قد أقبل تائبا مستجيرا .

ومع نداء المنادى بتأمين من يدخل دار أبى سفيان فانه لم يدخل اليها أحد اذ قال الناس : قاتله الله ، وما تغنى عنا داره ؟ وتفرقوا الى دورهم والى المسجد الحرام .

وصبر النبى بأهله فى مبدأ الأمر صبرا طويلا ،ثم قوى ببعض قريش ثم بهم وبالأنصار ، ثم حارب بهما معا قرى العرب وحصونها حتى اذا توحدوا واجتمعوا لم يبال أن يوجههم وهو مريض الى حرب الروم ، فكان ذلك كنه تدرجا فى الجمع والتوحيد وتدرجا فى الدعوة ونشرها : بلغ الأقرب فالقريب ثم البعيد فالأبعد والغريب حتى تسير الدعوة مسير الضوء فتعم فجاج الارض جميعا .

وتعلم العرب من حروب النبى ضروب البطولة ، فلم يكن القائد وحده فى غزوة أو سرية هو البطل الفذ الذى يشار اليه ، بل قد يكون البطل شيخا ضعيفا أو امرأة ، ولم تكن البطولة بالانتصار على الدوام ولكنها كانت تكون فى اشاعة مبدأ قويم أو عفة نفس سامية أو اقتحام صعب أو استشهاد عاجل . حتى كأن أصحاب النبى جميعا ــ وقد خلف منهم نحو مائة ألف ــ قد صاروا جميعا أبطالا ، وكيف لا وهم الذين سمعوا النبى بآذانهم يقول : ان أبواب الجنة تحت ظلال السيوف . حتى أنهم كانوا يودون جميعا أن يموتوا دون رسول الله ، وكانوا يمشون الى الموت استهانة وتبخترا ولا ضرورة أن يكونوا قرشيين أو من آل رسول الله .

لما كان يوم أحد وأصيب سعد بن الربيع الانصارى قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من يأتينى بخبر سعد بن الربيع ؟ فقال رجل : أنا يارسول الله ، فذهب الرجل يطوف بين القتلى فقال سعد بن الربيع : ماشأنك ؟ فقال الرجل بعثنى رسول الله لآتيه بخبرك . فقال : فاذهب اليه فأقره منى السلام وأخبره أنى قد طعنت اثنتى عشرة طعنة وأنى قد أنفذت مقاتلى ، وأخبر قومنا انه لا عذر لكم ان قتل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وواحد منكم حى .

وشهد ابو دجانة حروب النبى كلها فلما كان يوم احد قبل القتال امسك رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفا وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقال اليه رجال فامسكه عنهم ، منهم الزبير بن العوام حتى قام أبو دجانة واسمه سماك بن خرشة فقال :

ما حقه ياسول الله ؟ قال : تضرب به العدو حتى ينحنى ، فقال أنا آخذه يارسول الله بحقه ، فأعطاه اياه :

وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب وكان اذا تعمم بعصابة حمراء علم الناس أنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه ، فقال رسول الله حين رأى أبا دجانة يتبختر : انها مشيه يبغضها الله الا فى مثل هذا الموضع .

قال الزبير بن العوام : فوجدت فى نفسى حين سألت رسول الله السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلت : أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت اليه فسألته اياه قبله فأعطاه اياه وتركنى والله لانظرن ما يصنع ، فاتبعته . واخرج عصابة فعصب بهارأسه فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت . فخرج يرتجز فجعل لايلقى أحدا الا قتله . وكان فى المشركين رجل لايدع جريحا الا أجهز عليه فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فأتقاها بدرقته فعضت بسيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله .

قال الزبير : ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عزل بالسيف عنها وقال : أكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة !

قال الزبير : فقلت : الله ورسوله اعلم

وحضر البراء بن مالك يوم مسيلمة الكذاب وقد قتل أكثر أصحاب مسيلمة والتجأ منهم نحو سبعة آلاف الى حديقة الموت ، فامتنعوا فيها ، فقال البراء بن مالك : احملونى على الجدار حتى تطرحونى عليهم ، فقالوا : لا نفعل بابراء قال : والله لتفعلن ، فحملوه على الجدار فرأى كثرتهم فقال : انزلونى ، فأنزلوه ، ثم قال : احملونى فقال : اف لهذا جشعا ! ثم اقتحم على اصحاب مسيلمة حديقة الموت فقاتلهم على الباب حتى فتحه المسلمون ودخلوا عليهم فقتلوهم أجمعين .

ولقد كان اصحاب محمد يتفاخرون بالفقر والاقبال على الشهادة ويحسد غنيهم فقيرهم اذا سبقه الى الجنة ، وهو غير ما صارت اليه الدنيا بعدهم من التفاخر بالمال والسلامة ·

وقد فكر عبد الرحمن بن عوف الصحابى المكثر من المال بوما فى أمر مصعب بن عمير الذى استشهد فى أحد تاركا كل ما يملكه فى مكة ـ وكان كثيرا ـ ولم يجدوا حين استشهد كفنا يغطونه به قال عبد الرحمن : قتل مصعب بن عمير وهو خير منى فلم يوجد له مايكفن به الابردة ان غطى رأسه بدت رجلاه وان غطيت رجلاه بدا رأسه ، وقد بسط لنا من الدنيا ما بسط وأعطينا من الدنيا ما أعطينا ، وخشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا فى الحياة الدنيا · قال ذلك عبد الرحمن بن عوف ثم بكى ·

وعلمت شريعة الحرب المسلمين الا يفتحوا بلدا الا لمبادىء يعلو فيها قدر الانسان وينقذوه من الظلم ، وكانت مطالب الفتوح من كل بلد : اما الاسلام واما الجزية أو الحرب ، وكل الثلاثة مردود الى اثنين ، أولها الاسلام وهو الأول فان فتحت البلاد فرضت الجزية ، وليس معناها أخذ مال بلا مقابل ، بل معناها أن يصيروا من أهل الذمة ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم · وليس فى تاريخ الفتوح ماهو ألين منها وأعدل اذ هى دعوة لان يجاور أهل الذمة المسلمين حتى يعلموا ماهم عليه · ومبادىء الاسلام كفيلة ان تنقل أهل الذمة الى الاسلام ، وهو ماحدث فى كل فتوح المسلمين · أما ان لجئوا الى الحرب فالمصير أن يسلموا أو يصيروا ذميين اذاانتصر المسلمون ، فان أمن المسلمون أعداءهم وجنح الاعداء للسلم فقد وجب على المسلمين ان يجنحوا لها وعليهم ان يوفوا بالعهود ولا ينقضوا المواثيق ·

وأشرف ماكان فى شريعة الحرب عند النبى والمسلمين تامين اللاجىء حتى اذا بذل الامان مسلم واحد وجب على المسلمين جميعا أن يحققوا أمانه ولا ينقضوا عهده ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم »

وعلم محمد صلى الله عليه وسلم كل قائد لمعركة ان لايخرج اليها الا بعد ان يقلب وجوهها ويتبين أمر النصر والهزيمة ثم يصمم ، فاذا راى خوضها اولى خرج لابسا درعه ولامته شاهرا سيفه معلنا أنه سيقاتل غير راجع عن القتال لأن الامر أمر فصل وجد لا هزل .

وقبل غزوة أحد رأى رسول الله أن فى سيفه ثلمة وان بقرا تذبح وأنه أدخل يده فى درع حصينه فتأولها أن نفرا من أصحابه يقتلون وأن رجلا من أهل بيته يصاب وأول الدرع بالمدينة فأشار أن لايخرجوا ولكن كثيرا من المسلمين أشاروا على النبى بالخروج فعمل بالمشورة فليس لأمته وخرج فقدم الذين ألحوا عليه وقالوا : يارسول الله ان شئت فاقعد فقال صلى الله عليه وسلم : ما ينبغى لنبى اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل !

وقد أفلح كل قائد اتبع النبى وجعله له أسوة فلم يقعد عن القتال حين عزم عليه فمضى فيه .

* * *

بيعة النساء

لم يتخلف النساء عن مشاركة الرجال فى قبول دعوة النبى وبثها سرا قبل أن يذهب الى دار أبى الأرقم ، ولست أذهب الى خديجة بنت خويلد ولا الى بناتها أو نساء عبد المطلب وغيرهن ممن يلذن ببيت خديجة أو بيوت عبد المطلب وبيوت بنى هاشم ، وانما أذهب الى غير هؤلاء من البيوت التى بلغتها الدعوة سرا ٠

وقد كان أول من أسلم وبايع بعد خديجة أم الفضل لبابة الكبرى ابنة الحارث بن حزم ثم اخواتها ام الفضل ميمونة بنت الحارث التى صارت بعد زوجا للنبى وهى أخت لبابة الشقيقة لأبيها وأمها ٠ ثم اخواتها لأبيها وأخواتها لأمها ٠

وكذلك سبقت للاسلام والمبايعة أسماء بنت عميس قبل دخول رسول الله دار الأرقم ، فلما أعلن رسول الله الدعوة واوذى الضعفاء ، هاجرت مع زوجها الاول جعفر بن ابى طالب الى الحبشة فلما قدمت كان رسول الله قد هاجر الى المدينة فهاجرت اليه ٠ وكانت أسماء تعتز بهجرتها الى الحبشة اعتزازا كبيرا فقال لها عمر بن الخطاب ذات يوم ـ ولعله كان يمازحها ـ ياحبشية ، سبقناكم بالهجرة ، فقالت : اى لعمرى ، لقد صدقت ، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعلم جاهلكم ، وكنا البعداء الطرداء ، أما والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأذكرن ذلك له ! فاتت النبى فذكرت ذلك له فقال : للناس هجرة واحدة ولكم هجرتان ٠

ولعل فاطمة بنت الخطاب بن نفيل تكون أبلغ رمز الى مثيلاتها ممن أسلمن وبايعن قديما قبل اعلان الدعوة وكن من العاملات المجاهدات لنشرها وقد أسلمت هى وزوجها سعيد بن زيد قبل أخيها عمر بن الخطاب ·

وتلقت فاطمة فى بيتها خباب بن الأرت معلم القرآن يعلمها فى بيتها ويقرئها ، وكان من تأثير ما قرأ المعلم وقرأت فاطمه أن لان قلب عمر بعد قسوته ثم أسرع ماضيا الى دار الأرقم ليسلم ويبايع . ولو لم يدرك لفاتته الدعوة وهى سر ، لأنها أعلنت فى هذا اليوم ذاته على أسماع الناس ·

وأقبل على الاسلام والمبايعة نسوة كثيرات ، حتى أن بيوتا بجملتها من الأخوات والأمهات والبنات قد أسلمت وبايعت ، وأقبلن على الاسلام يعاضدنه وينـاصرنه ، وكان كثير منهن من المستضعفات فهاجرن الى الحبشة هجرتيها الاولى والثانية مع أزواجهن وأولادهن ·

ولعل أم سلمة بنت أبى أمية التى صارت بعد أما للمؤمنين تكون رمزا مشيرا الى مثيلاتها ممن هاجرن ، وان لم يصر لهن حظ أم سلمة رضى الله عنها ·

وكانت مبايعة النساء للنبى بعد دار الأرقم على ما اشترط عليهن القرآن فيما بعد فى الآيات المنزلة بالمدينة حيث يقول « يأيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » فلم تخرج مبايعتهن بشىء عن مبايعة الرجال ·

ولم يفت النساء زمن من أزمان النبى الا وهى يقبلن عليه مبايعات فقد أقبلن قبل دار الأرقم وفيها وبعدها ثم أقبلن يشتركن فى بيعة العقبة حتى سميت ببيعة النساء ، ثم أرسل نساء الانصار الى النبى يبايعنه وأرسل اليهن يبايعهن ثم بايع منهن من بايع تحت الشجرة فلما كان يوم فتح مكة أقبل عليه نساء يمثلن القبائل

فأسلمن وبايعن اشارة الى كل النساء من ورائهن ، ولم يدعنه فى حجة الوداع دون مبايعة واعلان. ثم لم يعرف انامرأتهمن المسلمات لحقت بزوجها المشرك بعد قط بعد ايمانها ، حتى ان درة بنت ابى لهب كانت تخمد الناس عنها فتروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يؤذى حى بميت . ويكفى النساء فخرا فى اتباع الاسلام انهن بعثن للنبى كل ما يقدرن عليه من حليهن للاستعانة بها فى غزوة تبوك .

* * *

قالت أم عطية الانصارية : لما قدم رسول الله صلى الله عليهوسلم المدينة جمع نساء الأنصار فى بيت ثم أرسل اليهن عمر بن الخطاب فجاء حتى قام على الباب فسلم علينا فقال : السلام عليكن ، فرددنا عليه السلام ، فقال : أنا رسول رسول الله اليكن ، فقلنا : مرحبا برسول رسول الله ، فقال : تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين ايديكن وارجلكن ، فقلن : نعم .

قالت أم عطية : فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت (الحجرة) ثم قال : اللهم اشهد . قالت : وأمرنا بالعيدين ان نخرج فيهما جميعا ولاجمعة علينا ونهانا عن اتباع الجنازة والنياحة . وأن لانشق جيبا ولاندعو ويلا ولانخمش وجها ولانقول هجرا .

وقالت سلمى بنت قيس : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم أبايعه فى نسوة من الأنصار وكان مما أخذ علينا أن لا تغششن أزواجكن . قالت : فلما انصرفن قلن : نرجع الى رسول الله فنسأله فرجعن فسألنه فقال : أن تحابين أو تهادين بما له غيره .

* * *

ولما تحولت القبلة واستقبل رسول الله البيت الحرام تحول الناس معه وهم فى الصلاة فتحول الرجال مكان النساء وتحول

النساء مكان الرجال وهم فى الصلاة ، فصلوا السجدتين الباقيتين نحو الكعبة وكانت الصلاة صلاة الظهر أو العصر :

كان الناس يتجهون الى بيت المقدس وهو فى الشمال بالنسبة للمدينة ، وكان النساء خلف الرجال ، فلما تحولت الوجوه الى الكعبة تحولت الى الجنوب ، فلو بقيت الصفوف كما هى لوقع النساء أمام الرجال . فكان لابد أن يذهب كل مكان الآخر ويتموا الصلاة ففعلوا ٠

قالت نولة بنت أسلم الانصارية : صلينا الظهر ـ أو العصر ـ فى مسجد بنى حارثة فاستقبلنا بيت المقدس فصلينا سجدتين (أى ركعتين) ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فصلينا السجدتين ونحن نستقبل البيت الحرام ٠

وفى هذا الحادث يتبين مقدار ارهاف المسلمين جميعا أسماعهم لأخبار النبى وسرعة نقلها ومدى الصدق الذى كان فى المدينة والتصديق ، وحين بلغ رسول الله ما فعل الذين كانوا فى مسجد بنى حارثة مدحهم قائلا : أولئك قوم أيقنوا بالغيب ٠

* * *

حتى اذا كان يوم الفتح أقبل عليه النساء يسلمن ويبايعنه ، وكان فى أول من تقدمهن ست نسوة يمثلن نساء القبائل الكبرى هن : آمنة بنت عفان بن أبى العاص الأمويه وصخرة بنت أبى جهل المخزومية وعائشة بنت قدامة الجمحية وعقيلة بنت عتيك العتواريه والبغوم بنت معدل الكنانية وأم مرثد الأسلمية ٠

ثم لحقت بهن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، فتلقين جميعا شروط النبى فى البيعة ، ولم تكن شروطها الا شروط المدينة ، لئلا يثقل النبى على النساء فى الواجبات ، وهى شروط القرآن ٠

قالت هند لابى سفيان يوم الفتح : انى أريد أن أبايع محمدا

قال : قد رأيتك تكفرين

قالت : أى والله ، والله ما رأيت الله تعالى عبد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة ، والله ان باتوا الا مصلين قياما وركوعا وسجودا

قال : فانك قد فعلت ما فعلت ــ يريد فعلها بحمزة يوم أحد ــ فاذهبى برجل من قومك معك . فذهبت الى عمر فذهب معها فاستأذن لها فدخلت وهى منتقبة .

وقال رسول الله : بايعننى على ألا تشركن بالله ، فبايعنه وبايعته هند .

ثم قال : ولا تسرقن . فقالت هند : ان أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطينى ما يكفينى وولدى الا ما أخذت منه وهو لا يعلم . فقال النبى : خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف .

ثم قال : ولا تزنين . فقالت هند : أو تزنى الحرة يارسول الله !؟

ثم قال : ولا تقتلن أولادكن . فقالت هند : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا

ثم قال : ولا تأتين بهتان تفترينه . فقالت هند : والله ان اتيان البهتان لقبيح !

ثم قال : ولا تعصيننى فى معروف . فقالت هند : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف .

فلما كانت حجة الوداع تقدم فيمن بايع من النساء قتيلة بنت عمرو بن هلال الكنانية وأم جندب الأزدية فأسلمتا وبايعتا ، وقد رأت أم جندب رسول الله وهو يرمى جمرة العقبة من بطن الوادى فرمى بسبع حصيات مثل حصى الخذف وهو يقول : أيها الناس، لا يقتل بعضكم بعضا ، وعليكم بمثل حصى الخذف . وكان خلفه رجل يقيه حجارة الناس فسألت عنه فقيل : العباس بن عبدالمطلب

وهكذا لم تتخلف المرأة عن الدعوة بل سبق بعضهن الرجال ، وكان جديرا بهن أن يفعلن ذلك وأن يجاهدن مع الرسول كما جاهدن لأنه حقق للمرأة ذاتها وأنقذها من مظالم الجاهلية وهيأ لها أسعد حياة .

حجـــة الـــوداع

هل كان الزاد والراحلة بمعناهما المادى يكفيـان وحـدهما محمدا وأبا بكر فى هجرته الى المدينة ؟ وهل كان ينفع رجوع أبى بكر فى وحشة الغار الى عنصر المادة فى الانسان فبكى حزينا اذا لم يكن مع محمد زاد التقوى فقال لصاحبه اذ هما فى الغار : لا تحزن ان الله معنا ؟

وكانت الراحلتان اللتان ساقهما عبد الله بن أريقط الحادى الدليل قويتين بازلتين فهل كانتا تجديان لو لم تنهض المعجزة فتدر لهم اللبن فى طريق العطش الوعر وتسيخ أقدام فرس قدامة فى الصخر ؟

والحج كالهجرة تشترط فيه استطاعة السبيل ، وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها الزاد والراحلة . فهل يكفى كل حاج أن يحمل زاده ويعد راحلته دون أن يتزود بزاد من التقوى وان يعينه القدر ليؤدى فرضه ويتم حجه ؟

واذن فحين فسر رسول الله الاستطاعة بالزاد والراحلة كان يريد الزادين والراحلتين ، أما ما كان منهما ماديا دنيويا فقد لمع فى عين الانسان وحسبه أنه وحده يكفى ، وأما ماكان روحيا الهيا فكان خفيا لم يلمع ولكنه كان مرادا من الكلام ، لابد منه ، ولو لم يكن

لما كان ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه « أوتيت جوامع الكلم » !

وانفرد رسول الله وأصحابه بالهجرة ، وأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان حريصا شديد الحرص على أن يفوز أصحابه جميعا من قريش بأن تتم لهم الهجرة الى المدينة وأن يقدر لهم أن يموتوا بها أو بغيرها ولا يعودوا الى مكة أو يموتوا بها · وكان يدعو الله لذلك قائلا : **اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ! »** ·

وقد عد رسول الله من البؤس ألا يمضى الله هجرة أحد من أصحابه أو يرده الى مكة ، وحين جاء الى حجة الوداع وحج معه أصحابه وفيهم سعد بن خولة القرشى العامرى البدرى مرض بمكة ومات بها فرثى رسول الله له أن مات بمكة وقال : ولكن البائس سعد بن خولة !

وقد كان للنبى وأصحابه أن يهاجروا وأن تتم للقرشيين منهم نعمة الهجرة ، ويؤذن النبى فى الناس أن لا هجرة لأحد بعد هذه الهجرة الا لله ورسوله ، وقدر الله للمؤمنين أن تكون فريضة الحج من هذه الهجرة حتى لا يفوت مستطيع منهم ذوق المشقة وكبير الأجر ·

وكان على كل مسلم يحج أن يعد زاديه وراحلتيه حتى يذوق لذة الهجرة الى الله ورسوله ويلقى أجرها · ولم يشق الاسلام على المسلمين فيفترضها هجرة دائمة كهجرة المدينة ، ولكنها الى حين ومرة واحدة فى العمر ثم يعود الحاج الى بلده الا اذا وافاه قدره وأدركه أجله ·

وحج النبى بعد فتح مكة حجة الوداع أو حجة الاسلام سنة عشر ولزم فيها آدابا مفترضة على الناس فى أيام ازدحامهم فى الأسواق لم تأت شريعة قط بمثلها فى تأمين الناس اذا ازدحموا بمناكبهم فى الطرق والأسواق :

وحرم النبى على نفسه وعلى المسلمين أن يدخل الى الحـــرم بالسلاح وأن يؤمن صيد البر لئلا يؤذى أحد حتى الطير فى جـو السماء ٠

وحرم رسول الله على نفسه وعلى الناس أن يتدافعوا وأن يغلب القوى الضعيف فى الطواف فجعل يطوف على ناقته وسط الناس لا ضرب ولا طرد ولا اليك اليك ٠

وحرم رسول الله على نفسه وعلى الناس أن يرموا فى مزدلفة بأحجار كبار كما كانوا يفعلون فى الجاهلية فيؤذى بعضهم بعضا ثم ما تلبث أن تصير سباقا بين الناس ليقيس كل منهم قوته ويفتخر برمى حجره الى أبعد من صاحبه فتناول رسول الله حصى الخذف وهو الحصى الصغير ثم رمى به على قدر ما يصيب هدفه أو دونه أما وراءه فلا ٠ ليتعلم الناس اقدار الامور حتى فى رمى الحصا ٠

وحرم رسول الله على نفسه وعلى الناس ان يستطرد كلامهـم الى الجدل والعناد فمنع الجدال الذى أمر به القرآن أن يمنع ، فلا فسوق ولا جدال فى الحج ، وقد قرنه القرآن بالفسوق لأنه يؤدى الى ما يؤدى اليه ٠

* * *

وساق رسول الله الهدى الى الكعبة مائة من الابل ، بعضها حملها مع نفسه ، وبعضها وهو نحو الثلث أتى بها على بن أبى طالب من اليمن ، حتى يكون ذلك ايذانا بسوق الهدى الى الكعبة من كل جانب ، وكان معه نحو من تسعين ألف حاج جاءوا من جميع أنحاء الجزيرة فتجلت بهذه الحجة ما وصل اليه الاسلام من العظمة والسودد والمحبة والوحدة بعد حروب مريرة دامت عشر سنين بلا انقطاع ٠ وقد رافق النبى فى هذه الحجة النساء ، وكانت قطارات الابل مزدانة بالرايات والقلائد تسير مع كل هذه المواكب ليضحى بهـــا ٠

ولم يتخلف أحد من مكة ولا الطائف . لم يتخلف رجل منهم ولا امرأة ولا فتاة ولا صبى الا حجوا مع النبى حجة الاسلام .

ورسم فى هذه الحجة حد التلبية لتلهج الألسنة والقلوب بدعاء واحد فى المراقى والمهابط والاقامة والسفر وعند كل المشاعر ، وكان رسول الله يلبى ويقول « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ، لبيك » . والمسلمون يرددون وراءه ما يقول .

وخطب رسول الله خطبة الوداع ، ولعلها كانت أجزاء متلاحقة عند المشاعر وفى مكة وعرفة ، ثم جمعت بعد فى خطبة واحدة كما عرف الناس .

وفى هذه الخطبة أو الأجزاء المتلاحقة قرر النبى أصولا فى العلم والأخلاق والمعاملات تمتاز بها هذه الخطبة على كل ما قيل فى التشريع وتقرير الأصول :

فقد ذكر النبى للمسلمين أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وفى هذا نظرة من النبى الى وجوب معرفة الزمن وكواكبه كيف تختلف وتلتقى وتدور . ثم عين شهور السنة ورفض النسيء .

وكان العرب من قبل يمدون السنة كما أرادوا فتختلف الشهور والأيام فلما كانت السنة العاشرة وأقعت شهورها الشهور الحقيقية تماما ، وهو ما عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم باستدارة الزمان .

وجعل حرمة الدماء والأموال كحرمة مكة وحرمة الحج ، وعين أول قصاص يقع وأول مال من الربا يرد ، فبدأ بدم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ورد الربا من مال عمه العباس .

وقرر رسول الله فى هذه الخطبة حقوق النساء وواجباتهن وأوصى بهن خيرا واردف هذه الوصية بهن قائلا : فاعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلغت ٠

وقرر فيها أخوة الاسلام قائلا : اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أحدا ٠ اللهم هل بلغت ؟!

وفى هذه الخطبة حدث شىء جديد ولعله أروع ما حدث فى خطب رسول الله كلها ، ذلك أنه كان عند كل مقطع أو جزء من الخطبة يستشهد الله أنه بلغ ويسأل المسلمين هل بلغ ؟ فيقولون : نعم ٠

ولم يكن هذا الذى حدث بين النبى والمسلمين ترديد أصوات لا غير ، وانما كان عهدا بين النبى والمسلمين على تنفيذ ما يأمر به من الآداب والأعمال ٠ وليس فقط بينه وبين مسلمى زمانه أو مسلمى مكانه ، ولكن كل المسلمين فى كل زمان ومكان لأن رسول الله قال فى آخر خطبته هذه : ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، والغائبون كانوا فريقين : فريق غائب عن المكان حاضر فى الزمن وهم المسلمون الذين كانوا حينئذ أحياء ولم يحجوا ، وفريق غائب عن المكان وعن الزمان وهم المسلمون الذين لم يكونوا قد ولدوا ثم ولدوا وتعاقبوا الى آخر الزمان فى كل مكان ٠

وقد وضح هذا المراد رسول الله فى قوله فى نفس الخطبة بعد قوله : ليبلغ الشاهد الغائب ، قال : فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه ٠

ثم جمعت خطبة الوداع من جوامع الكلم وبدائع الحكم ما بقى أثره وسيظل باقيا فى الأذهان وكل الأزمان ٠

مكارم الأخلاق

مما لا بد منه أن يكون خلق كل نبى شبيه رسالته أو كتابه الذى أنزل عليه ، ولن يستطيع نبى أن يبلغ رسالته الا اذا كان خلقه مهادا تنطلق عليه رسالته وتسير دعواه ٠

وكما أن الرسالات والكتب المنزلة منحة من يد الرحمن فان الأخلاق كذلك هى منحة منه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى هذا الرأى ويقره ، وقد قال : « ان هذه الأخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنحه منها خلقا حسنا فعل » وهذا قول الصادق ، فان الأخلاق كالأرواح والأبدان فى قبضة الله وملك يمينه ، فاذا شاء أعطى وبسط واذا شاء منع أو قبض ٠ وحين قال الله سبحانه لنبيه « وانك لعلى خلق عظيم » لم يكن ذلك الا عطاء واجتباء ٠

وأعلى من المكارم التى يتخلق بها أكرم الناس كان خلق محمد ، وقد أوجزت عائشة الصديقة حين سئلت عن خلقه فقالت : « كان خلقه القرآن » وهو غاية ما يتخلق به نبى ويتصف به رسول ٠

وكلمة « لا » التى تسبق الى كل لسان كانها مركوزة على طرفه حين يساله سائل قريب أو غريب عن حاجة يحتاجها لم تركز قط على لسان النبى فلم يقلها مرة واحدة فى حياته لسائل حاجة ، حتى ولو لم يكن الا هى فى ملك رسول الله ، وحتى اذا كان السائل لا يستحقها :

وقد توفى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة فجاء ابنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أعطنى قميصك أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له ؛ فأعطاه النبى قميصه وقال له : اذا فرغت فآذنا . فلما فرغ آذنه فجاء يصلى عليه .

ولكن رسول الله لم يمض الصلاة حين ذكره عمر بن الخطاب بقوله تعالى فى المنافقين « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وحينئذ كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا .

لقد علت نفس رسول الله وسمت فلم تر لها من حاجة فى الأرض او الدنيا تعتز بامتلاكها وتؤثرها ، ورأت كل ما على الأرض زينة لها ليبلو الله الناس أيهم أحسن عملا فلم يقل « لا » قط لسائل يسأله ولو لم يكن عنده حاجة غيرها ، وكان أحوج اليها من سائلها ، بل كان كالريح المرسلة فى كل وجه تمطر وعلى كل أرض تجود .

أما ما كان متصلا بالدعوة مأمورا به من الله فقد كان يقولها حتى لأعز من يتصل به ولو كان والدا له وراعيا ، وقد حدث أن أبا طالب عمه طلب اليه ذات مرة : أى بنى ، أبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ! . ولم يكن رسول الله يجهل من هو أبو طالب منه ولكنه بادره قائلا « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ، فانثنى اليه أبوطالب قائلا له : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

وهكذا كان رسول الله ماضى القول والرأى كالريح المرسلة أو السيف القاطع فاذا كان الخير لم يقل « لا » ومضى ، واذا كان ما يراد به دينه القويم قالها مصمما وامضاها ماضيا .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم أسمى خلقا وأكمل نبلا اذا أصابته شدة أو وقع فى كرب . وقد يظهر الناس جميعا فى اليسر

والسعة كأنهم أبطال ، فاذا اشتدت بهم الخطوب تفرقت قلوبهم وطارت عقولهم كما تتفرق الطير وتغيب ٠

حتى كأن محمدا لا يحتاج الى طعام اذا لم يجده ؛ فاذا عض أهله الجوع والتمسوا الطعام فلم يجدوه وشكوا ، سألوا النبى عن حاله فيخبرهم أن الله يطعمه ويسقيه ، وكأنه ليس فى حاجة الى طعام ٠

وحتى كأنه لايريد ان يقعد من قيام فما يزال يصلى حتى تتورم قدماه ، ويعجب الناس الذين يقعدون حتى قبل أن يتموا ، ويسألونه أن يخفف عن نفسه فيقول : ألا أكون عبدا مشكورا ؟!

وحتى فى الحرب التى هو قائد الناس فيها كان يقتحم ولا يتأخر ولا يتوارى ، حتى اذا اشتد العراك ، وتفانى الأبطال اتقوا برسول الله كأنه جنة لهم من السيوف والسهام ٠

حتى اذا خمدت المعركة وانطفأ الوطيس ومال كل جندى الى بدنه يتحسس متاعبه وجروحه مضى هو فى الجرحى والقتلى يمسح جروح المصابين ويوارى جثث الشهداء ٠

ولقد سأله رجل من عامة الناس مرة أن يأذن له فى الحرب معه فأذن له ، ثم التحم القتال فاقتتلوا ، فلما افترق القوم قال النبى صلى الله عليه وسلم : تفقدوا اخوانكم ٠ فقالوا : يارسول الله ، ذلك الرجل قتل ٠ فقام النبى معهم ، فلما أشرف عليه قال : اليوم حسن الله وجهك وطيب ريحك وزكى حسبك ٠٠٠ !

وقلب محمد لم يكن ينام ، وان كان على الخلقة كقلوب الناس ، لأنه كان يسهر على حقيقة وعلى أمة فلا ينام عنهما ولا يغفل ، فاذا أغمض عينيه واسترسل فى سنة من النوم تراءت له الرؤى الصادقة فرأى الحقائق بقلبه كأنما تراها عيناه وهو يقظان ٠

وقد قال رسول الله ذات مرة لعائشة وهو يجيبها عما سألت : « تنام عيناى ولا ينام قلبى » فكأنه صلى الله عليه وسلم قد أشار

بالعين الى الحس وبالقلب الى الروح وأراد أن يوضح لعائشة سيطرة قلبه على حسه وروحه على بدنه ، فبدا نائما ولكنه يقظان ·

وكما كان رسول الله عظيم الخلـــق كان يحب أن تكون فى الناس مكارم من الأخلاق ، وهل جاء الا لها ، أو بعث الا من أجلها ؟ بل كان من أجلها يطلق الأسرى ويفك السبايا ·

وقصة سفانة بنت حاتم الطائى معه حين قدمت عليه فى سبايا طى أروع مثل لحب النبى لمكارم الأخلاق ، وحتى لو كانت بقيت فى سيرة باقية لميت فى الجاهلية ولم يعش للاسلام :

فحين قدمت سفانة فى السبايا جعلت فى حظيرة بباب المسجد. فمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة جـــزلة فصيحة اللسان ، وحسبها أنها من طى وأنها بنت حاتم ، فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد وغاب الوافد ···

فقال رسول الله : ومن وافدك ؟

قالت : عدى بن حاتم

قال : الفار من الله ورسوله ! ثم مضى وتركها ·

ثم مر رسول الله بها فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد وغاب الوافد ، فأمنن على من الله عليك !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد فعلت فلا تعجلى حتى تجدى ثقة يبلغك بلادك ·

ولقد من رسول الله عليها فأطلقهـــا حين ذكرت له أباها واشتشفعت لديه بمكارم أخلاقه ادراكا منها بما كان فى رسول الله من حب مكارم الأخلاق فكان مما قالته عن أبيها : كان أبى يفك العانى ويكرم الضيف ويعين على المكروه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أطلقوها ، فان أباها كان يحب مكام الأخلاق ·

قالت سفانة :

ثم قدم رهط من قومى فكسانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملنى وأعطانى نفقة فخرجت حين قدمت على أخى فقال : ما ترين فى هذا الرجل ؟ فقلت : أرى أن نلحق به !

قال عدى :

فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد فقال الناس : هذا عدى بن حاتم . وجئت بغير أمان ولا كتاب .

وقال عدى :

وكنت قبل ذلك انى لأرجو الله أن يجعل يد رسول الله فى يدى ، فقام رسول الله فأخذ بيدى فلقيته امرأة وصبى معها فقالا : ان لنا اليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما ثم رجع فأخذ بيدى حتى أتى الى داره ، فالقت له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه يعلمنى الاسلام .

ثم مضى أبو طريف عدى بن حاتم فى اسلامه وترك البادية ونزل الكوفة وابتنى بها دارا فى طى ، ولم يزل مع على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وشهد معه الجمل وصفين ، وذهبت عينه يوم الجمل ومات بالكوفة زمن المختار . ولولا أنه استجاب لمكارم الأخلاق التى بعث بها رسول الله ، لمات اعرابيا جلفا ومشردا طريدا .

ويقول الله لرسوله ، وانك لعلى خلق عظيم ، فتم القول الفصل فى وصفه ونعته ، فكل ما يجرى من قول مفصل أو موجز فهو دون ما وصفه به القرآن .

نـــذر البـقـــاء

فى غزوة أحد أكرم الله فيها من أكرم من المسلمين بالشهادة ثم خلص العدو الى رسول الله ـ صلى الله عليه وســـلم ـ فرمى بالحجارة حتى أصيب بها أو التوى بعض جسده ووقـع لجنبه ، وأصيبت رباعيته وشج فى وجهه وأصاب شفته جرح ..

وكان فى امكان القدر أن يصونه عما جرى ويحميه مما وقـع ، ولكن ليعلم رسول الله ، وليعلم المؤمنـون أن كل حى من بنى آدم عرضة لأن يصاب أو يقتـل حتى الأنبيـاء ، وليعلموا أيضـا أن الكارثة قد تزحف حتى تعم حين يجترئون على العصيان وينسـون ما أمروا به ..

ولو علم الرماة الذين وضعهم رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ على الجبل أن ذلك سيحدث لما فعلوا .. ومن المألوف أن ينسى الانسان نفسه وواجباته حين يكون فى أمن ورخاء ، ولكن هؤلاء نسوا ما أمروا به وهم فى وقعة لم تنته بعد ، وذلك ليعلم ابن آدم أنه ـ ما لم يحفظه الله ـ موضع الاغترار حتى فى أشد أوقات كربه وحالات ضيقه .

ومن قبل أحد أو من بعدها أصيب رسول الله فى اصبع قدمه فجعل يرتجز ويقول : « ما أنت الا اصبع دميت وفى سـبيل الله ما لقيت » .. وكان رسول الله فى ارتجازه يستصغر أن تصيب الحرب الأقدام وهى تحصد الرءوس . وفيه اشارة الى أن الحـرب

مهما حملت من الهول الذى تحمله فانها كانت عند اصبع قدمه لم تتجاوزه ..

وقد نكر رسول الله لفظها ، فلم يقل اصبعى تهوينا من القائد للامر الذى وقع له فلا يتيئس الجند بما يقع لهم .. ولعل رسول الله كان يشير الى أنها أول زحفة لانتقاص البدن ثم ما يزال يليها الزحف مرة بعد أخرى حتى تبقى الروح التى أذن الله لها أن تخلق للبقاء ..

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر فى جماعة من بنى غفار ، وبينما هم فى الوقعة اذ دنت دابة غفارى من دابة النبى صلى الله عليه وسلم فى مزدحم القوم فخدش الغفارى ساق النبى صلى اللهعليه وسلم فآلمه ذلك حتى ضرب رجل الغفارى بعصاه

فلما وقع الصلح بينه وبين خيبر قدمت له زينب بنت الحارث اليهودية شاة مشوية وسألتهم : أى عضو من الشاة أحب الى النبى ؟ فقيل لها الذراع ، فأكثرت فيها من السم ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها ..

فلما وضعتها بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها فرمى بها .. وكان معه بشر بن البراء قد أخذ منها كما أخذ النبى .. فأما بشر فأساغها اجلالا للنبىصلى الله عليه وسلم ، وأما النبى فلفظها قائلا : ان هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم !

ومات بشر بن البراء ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يجد من أكلة خيبر ألما ، حتى اذا كان مرضه الأخير قال : « ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلته بخيبر ، وهذا أوان انقطاع أبهرى » !

ولقد صدق بحيرا النسطورى الراهب حين حذر أبا طالب من يهود على ابن أخيه ، وكأنما كان بحيرا ينظر الى الغيب من وراء حجاب شفيف !

ثم جرحت ساق النبى صلى الله عليه وسلم ذات مرة حين سقط عن فرسه ، فلما أسن كان يجلس قبل السجود الاول ، وذلك لعذره وقد حدثت عائشة انه فعل ذلك فى آخر أمره لما بدن وثقلت حركة أعضائه لارتفاع سنه .. ثم حدث أحد مواليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انقطع للتعبد قبل أن يموت بشهرين واعتزل النساء .

ثم خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى آخر أيامه يهادى بين العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب تخط رجلاه الأرض ..

وهكذا ما زال البدن ينتقص شيئا فشيئا حتى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الأخير ، فوجد صداعا شديدا ، وكان كلما اشتد عليه مد يده الى اناء فيه ماء ثم مسح به جبينه الشريف.

الا أن الشيب لم يفش فى رأس رسول الله ولا وجهه ، وقد حاول المحصون عده ، ولكنهم أجمعوا على أن الشعرات البيض لم تزد عن عشرين ، وما رؤى محمرا منها حينا ، فانما كان من أثر الطيب ..

ولكن نذر البقاء التى دقت أبواب البدن فى أوقات متباعدة نزلت متتابعة متلاحقة على الروح ، وما ذلك الا لأنها تحتمل وتصبر، بل لا حد لاحتمالها واصطبارها .

ونزل جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه الى عرفات بقرآن يقول :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ..

ثم نزل قبلها أو بعدها بقرآن يقول :

« اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » ..

وكان أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ رجلا لبيبا ، فحين سمع النبى يقرأ ما أوحى اليه من هذا بكى لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى الى الناس ٠

وكانت العاقبة تملأ حس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فجعل يسأل الناس عن الشهر الحرام والبلد الحرام ، ويشير فى صراحة الواثق الى أنه لعله لا يعود ولا يلقاهم فى مثل شهرهم هذا ، ولا بلدهم هذا ٠٠ ثم عاد رسول الله الى المدينة ، ثم مرض مرضه الأخير ٠٠

ولم يكن رسول الله يوما يتشبث بالحياة ، ولكنه كان كلما مرض دعا ربه أن يشفيه ثم يقرأ المعوذتين ، وكان كثيرا ما يدعو وهو سليم البدن معافى قائلا : أعوذ بالله من شر عرق نعار !٠٠ يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتزاز العرق بالدم وطول الألم فيه ٠

ولكن رسول الله فى المرضة الأخيرة لم يدع لنفسه بالشفاء ، بل كان يردد قوله : ان للموت سكرات ٠٠ اللهم أعنى على سكرات الموت ٠٠ ثم يدخل يده فى قدح الماء ويمسح وجهه به ٠

وقبل أن ينقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيت عائشة فى مرضه هذا أرسل الى مولى له يقال له أبوه مويهبة ٠

قال أبو مويهبة : بعثنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جوف الليل فقال : « يا أبا مويهبة ، انى قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معى » ، فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم قال « السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى ٠٠ »

قال أبو مويهبة : ثم أقبل على فقال « يا أبا مويهبة ، انى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا ثم الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقاء

ربى والجنة » فقلت : بأبى أنت وأمى فخذ خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا والله يا ابا مويهبة ، لقداخترت لقاء ربى والجنة ، ثم استغفر لاهل البقيع ثم انصرف فبدأ وجعه الذى قبضه الله فيه .

ثم غمره المرض واشتد به وجعه ثم جعل يرفع بصره الى السماء ويكرر قوله : بل الرفيق الاعلى ، بل الرفيق الأعلى ، ثم أصمت فلا يتكلم ، وقد كان فى آخر من دخل عليه أسامة بن زيد فجعل رسول الله يرفع يده الى السماء ثم يضعها عليه ، فعرف أسامة أنه يدعو له .. ثم صعدت روحه الى عالم البقاء ، الى الرفيق الأعلى

وضجت المدينة بالبكاء ، واضطرب الناس وذهلت عقولهم حتى كاد بعض أصحابه أن ينكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت، ولكن أبا بكر وكان من قبل يرى أن نذر البقاء تتوالى، وقف فى الناس يردهم من ذهولهم ويجمع قلوبهم من اضطرابها ويقول :

أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

* * *